التنبيهات في شرح كشف الشبهات

آخر نسخة ١٤٤٦هـ

عبدالله محمد الجهني

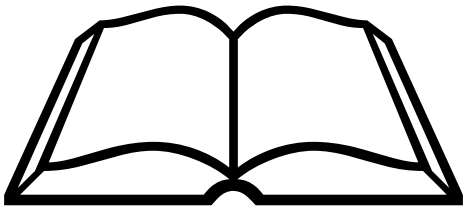

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتفرد بالكمال , والجلال , والجمال ، المتفضل على عباده بجزيل النوال .

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلِّ اللهم عليه ، وعلى آله , وصحابته أجمعين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ... أما بعد :

فهذا شرح مختصر موجز على كتاب (كشف الشبهات) للإمام : محمد بن عبد الوهاب – رحمه الله – حرصت فيه على إيصال مقصود الشيخ ، وإيضاح عباراته ، وقد وسمت هذا الشرح بـ [**التنبيهات في شرح كتاب كشف الشبهات**] .

أسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفع به ، وأن يجزي الشيخ عن المسلمين خير الجزاء .

وصلِّ اللهم على نبينا محمد ، وعلى آله , وصحبه , وسلم .

قبل الشروع في شرح هذا الكتاب المفيد يحسن أن نتكلم عن عدة أمور , وهي :

أولاً : أهميته :

هذا الكتاب يعتبر من كتب الردود , وهو على صغر حجمه إلا أنه قد حوى علماً جماً فيما يتعلق **بتوحيد العبادة وما يناقضه.**

قال الشيخ سليمان بن سحمان : صنف الشيخ رحمه الله كشف الشبهات ، وذكر الأدلة من الكتاب والسنة على بطلان ما أورده أعداء الله ورسوله من الشبهات ، فأدحض حججهم ، وبين تهافتهم ، وكان كتاباً عظيم النفع على صغر حجمه ، جليل القدر , انقمع به أعداء الله ، وانتفع به أولياء الله ، فصار علماً يقتدي به الموحدون ، وسلسبيلاً يرده المهتدون ، ومن كوثره يشربون ، وبه على أعداء الله يصولون ، فلله ما أنفعه من كتاب ، وما أوضح حججه من خطاب ، لكن لمن كان ذا قلب سليم ، وعقل راجح مستقيم أ.هـ

وقد عني العلماء وطلاب العلم به , فحفظوه , وقاموا بشرحه , والتعليق عليه , وتدريسه في المساجد , وما زالوا كذلك ولله الحمد.

ثانياً : سبب تأليفه :

بعد أن نشر الشيخ دعوته علماً وعملاً , وهدم القباب , وبيَّن الشرك وحاربه[١] , وبيَّن مذهب أهل السنة والجماعة في توحيد الألوهية , أثيرت حول الشيخ شبه , وبدأ علماء السوء يحاربونه , ويحذرون منه[٢] .

وبدأوا بمعارضة دعوته بإراد الشبه على هذه الدعوة بما ظاهره العلم , تلبيساً على الجهال , وأنصاف المتعلمين .

فانبرى الشيخ لكشف هذه الشبه , وإزالة هذا التلبيس , فكان هذا الكتاب الذي أظهر الله به الحق , وأزهق به الباطل .

وعليه فهذا الكتاب هو حصيلة جواب الشيخ عن تلك الشبه , كما قال رحمه الله في هذا الكتاب : وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله تعالى في كتابه جواباً لكلام احتج به المشركون في زماننا علينا .

---

(١) قال ابن غنام : كان غالب الناس في زمانه – يعني : الإمام محمد بن عبد الوهاب – متضمخين بالأرجاس ، متلطخين بوضر الأنجاس ، حتى قد انهمكوا في الشرك بعد حلول السنة المطهرة بالأرماس ، وإطفاء نور الهدى بالانطماس ... فعدلوا إلى عبادة الأولياء والصالحين ، وخلعوا ربقة التوحيد والدين ، فجدّوا في الاستغاثة بهم في النوازل والحوادث ...

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن : وفي حدود القرن العاشر وما بعده لا يعرف أحد من العلماء تكلم بالتوحيد ودعا إليه , وعرف هذا الشرك ونهى عنه , حتى أظهر الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله . الدرر السنية ج١١ص٥٧٢ .

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن : كان أهل عصره ومصره في تلك الأزمان قد اشتدت غربة الإسلام بينهم ، وعفت آثار الدين لديهم ، وانهدمت قواعد الملة الحنيفية , وغلب على الأكثرين ما كان عليه أهل الجاهلية ، وانطمست أعلام الشريعة في ذلك الزمان ، وغلب الجهل والتقليد , والإعراض عن السنة والقرآن ، وشب الصغير لا يعرف من الدين إلا ما كان عليه تلك البلدان ، وهرم الكبير على ما تلقاه من الآباء والأجداد ، وأعلام الشريعة مطموسة ، ونصوص التنزيل وأصول السنة فيما بينهم مدروسة .

(٢) ويذكر الدكتور عبد الله العثيمين عدداً تقريبياً لأولئك الخصوم في نجد آنذاك ، وتنوع مواقفهم فيقول : واضح من رسائل الشيخ الشخصية أن دعوته لقيت معارضة شديدة من قبل بعض علماء نجد ، فالمتتبع لها يلاحظ أن أكثر من عشرين عالماً , أو طالب علم وقفوا ضدها في وقت من الأوقات ، ويأتي في مقدمة هؤلاء المعارضين عبد الله المويس من حرمة ، وسليمان بن سحيم من الرياض ، ويستفاد من هذه الرسائل أن معارضي الشيخ من النجديين كانوا مختلفي المواقف ، فمنهم من عارضه واستمر في معارضته مثل المويس ، ومنهم من كان يعترف في بداية الأمر بأن ما جاء به الشيخ أو بعضه حق ، لكنه غيّر موقفه مع مرور الزمن مثل ابن سحيم ، ومنهم أيضاً من كان متأرجحاً في تأييده ومعارضته مثل عبد الله بن عيسى .

ثالثاً : محتويات الكتاب :

يمكن أن نقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام , وهي :

١. **مقدمة** : ذكر فيها الشيخ عدة أمور منها : تعريف توحيد العبادة ، وبيان أنه دين جميع الرسل ، ثم بين حال كفار قريش اعتقاداً وعملاً ، وبين السبب الذي أحل دمائهم وأموالهم ، وهو جعل وسائط بينهم وبين الله .

وبين أن هذا هو فعل كثير من الناس في زمانه – بل وإلى زماننا هذا – وذكر أنهم سموا الذي سماه الكفار (إلهاً) بغير ذلك , مثل (السيد) و(صاحب السر) و(الولي) و(الشيخ) وغير ذلك ، وصرفوا لهم ما كان يصرفه المشركون لآلهتهم وأكثر .

وذكر في هذه المقدمة أن من حكمة الله تعالى أن جعل لكل نبي عدواً يصد عن دين الله بشبه يلبس بها على الجهال ، وبين أنه ينبغي التسلح بالعلم لمواجهة هذا العدو .

ومراد الشيخ بهذه المقدمة المهمة بيان السبب الذي أحل دماء المشركين وأموالهم ، وأنه هو بعينه الذي يفعله الناس في زمن الشيخ من جعل الوسائط بينهم وبين الله ، وأنه لم تغن عنهم أعمالهم الطيبة التي كانوا يتقربون بها إلى الله ، وكذلك لم يغن عنهم إقرارهم بتوحيد الربوبية أو أكثر أفراده .

وهذه المقدمة مهمة جداً , وضبطها يعين كثيراً في رد أكثر الشبه التي تثار حول توحيد الألوهية .

وتقديم الكتاب بهذه المقدمة دليل على فقه الشيخ , وحسن تصنيفه .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم : وقدم المصنف رحمه الله مقدمة نافعة في بيان حقيقة دين المرسلين وما دعوا إليه ، وحقيقة دين المشركين وما كانوا عليه , ليعلم الإنسان حقيقة دين المرسلين عند ورود الشبهة ، ويعلم من هو أولى بدين المرسلين من دين المشركين ، وبيَّن أن مشركي زمانه هم أتباع دين المشركين .

٢. **صلب الموضوع** : وذكر فيه الشبه التي يتعلق بها المشركون , وذكر الرد عليها ، وهي إحدى عشرة شبهة , وأحياناً يرد بجواب واحد , وأحياناً بأكثر من جواب .

٣. **خاتمة** : وبين فيها أهمية التوحيد ، ووجوب العمل به ظاهراً وباطناً ، وتحدث عن بعض الأعذار الواهية التي لا تمنع من العمل بالتوحيد .

شرح عنوان الكتاب :

الكشف لغة : الإزالة والرفع ، ومنه قوله تعالى ﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب ﴾ أي : رفعنا .

وقوله تعالى ﴿ لئن كشفت عنا الرجز ﴾ أي : رفعت وأزلت .

والشبهات : جمع شبهة . وهي : الأمر الملتبس .

قال في المصباح المنير : والشبهة في العقيدة : المأخذ الملَبَس , سميت شبهة , لأنها تشبه الحق .

ويقول ابن تيمية : ولا يشتبه على الناس الباطل المحض , بل لابد أن يشاب بشيء من الحق .

ويقول أيضاً : وأكثر ما ينْفق بين المسلمين ما فيه حق وباطل , إذ الباطل المحض لا يبقى بينهم .

ويقول أيضاً : ومن صبر من أهل الأهواء على قوله فذاك لما فيه من الحق , إذ لا بد في كل بدعة – عليها طائفة كبيرة – من الحق الذي جاء به الرسول ﷺ ويوافق عليه أهل السنة والحديث ما يوجب قبولها , إذ الباطل المحض لا يقبل بحال .

فكأن المصنف يقول : إن كلام أهل الباطل وإن كان باطلاً إلا أنهم يخلطونه بشيء من الحق , فيختلط على العوام , ويشكل عليهم حتى يظنوا الباطل حقاً . فكتب هذه الرسالة لرفع وإزالة هذه الاعتراضات والإشكالات في توحيد العبادة , ليظهر الحق جلياً لمن أراده , قال تعالى ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ .

يقول ابن تيمية في الجواب الصحيح : الحق إذا جُحِدَ وعورض بالشبهات أقام الله البينات بما يظهره من أدلة الحق ، وبراهينه الواضحة ، وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة , وذلك بما يقيمه الله سبحانه وتعالى من الآيات والدلائل التي يظهر بها الحق من الباطل ، والخالي من العاطل ، والهدى من الضلال ، والصدق من المحال ، والغي من الرشاد ، والصلاح من الفساد ، والخطأ من السداد ، وهذا كالمحنة للرجال التي تميز بين الخبيث والطيب .

ويقول ابن القيم في كلام نفيس : الله سبحانه سمى علم الحجة سلطاناً , لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره , فله بها سلطان على الجاهلين , بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد , ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد , فإن الحجة تنقاد لها القلوب , وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن , فالحجة تأسر القلب وتقوده , وتذل المخالف , وإن أظهر العناد والمكابرة فقلبه خاضع لها ذليل , مقهور تحت سلطانها , بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يساس به فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها , قدرة بلا علم ولا رحمة , بخلاف سلطان الحجة , فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة , ومن لم يكن له اقتدار في علمه فهو إما لضعف حجته وسلطانه , وإما لقهر سلطان اليد والسيف له , وإلا فالحجة ناصرة نفسها , ظاهرة على الباطل , قاهرة له أ.هـ

ومقام بيان الحق , وتعرية الباطل بالحجة الدامغة من أعظم مقامات الإسلام .

يقول ابن تيمية : فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم , لم يكن أعطى الإسلام حقه , ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان , ولا حصل بكلامه شفاء الصدور , وطمأنينة النفوس , ولا أفاد كلامه العلم واليقين .

ولا يفوتني هنا أن أذكر بكتاب (دعاوى المناوئين) للشيخ الفاضل عبد العزيز آل عبد اللطيف , فهو كتاب لا ينبغي لطالب علم له عناية بالتوحيد أن يترك النظر فيه , فقد بذل المؤلف فيه جهداً كبيراً , وجمع فيه الشبهات المثارة ضد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من مصادرها , وأجاب عليها بأجوبة مسددة , وفقه الله لكل خير .

وأنصح كل من له قدرة وجِدة أن ينشر هذا الكتاب , خاصة في البلاد التي ينتشر فيها الشرك , نصرة لدين الله , ونشراً للتوحيد الخالص , والعقيدة الصافية .

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم رحمك الله أن التوحيد هو إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة .

وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده , فأولهم نوح عليه السلام أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين : وداً , وسواعاً , ويغوث , ويعوق , ونسراً .

وآخر الرسل محمد ﷺ وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين .

خلاصة هذا المقطع : أن التوحيد الذي دعت إليه جميع الرسل , وطولب به جميع الناس هو إفراد الله بالعبادة .

والشيخ كثيراً ما يعرف التوحيد , والشرك , ويحصره في توحيد العبادة , والشرك في العبادة , وذلك أن الخلل الأكبر , والخصومة الأكثر بين الأنبياء وأقوامهم هي في هذا النوع من التوحيد , وهو معنى (لا إله إلا الله) بالمطابقة , قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) .

ولا يعني هذا أن الرسل لم يصححوا الأخطاء في جانب الربوبية , ولكن الخصومة والمعارضة أكثر ما كانت في الألوهية .

قوله [بسم الله الرحمن الرحيم] .

سبق الكلام عن البسملة في شرح (ثلاثة الأصول) .

قوله [اعلم] .

هذه الكلمة يؤتى بها عند ذكر الأشياء المهمة التي ينبغي للمتعلم أن يصغي إلى ما يلقى إليه بعدها .

قال الشيخ حافظ حكمي في معارج القبول : (اعلم) كلمة يؤتى بها للاهتمام , وللحث على تدبر ما بعدها .

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم : وما قرره المصنف في هذا الكتاب حقيق بأن يصغى إليه غاية الإصغاء .

قوله [رحمك الله] .

هذا دعاء من المصنف للقارئ والسامع , يدل على حسن قصده , وحسن دعوته , نحسبه كذلك , والله حسيبه .

وسبق الكلام في شرح (ثلاثة الأصول) أنه لا بد للداعي إلى الله من الجمع بين حسن اللفظ , وحسن القصد .

قوله [أن التوحيد هو إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة] .

عرف المصنف التوحيد ببعض أفراده , أو بأجل أفراده , وهو توحيد الألوهية , لأنه الذي حصلت فيه الخصومة بين الرسل وأقوامهم .

فالرسل لم يدعوا أقوامهم إلى إفراد الله بالخلق , والرزق , ونحو ذلك من أفراد الربوبية , لأنهم مقرون بذلك , بل دعوا أقوامهم إلى إفراد الله بالتوجه والقصد .

وهذا التوحيد هو مدلول كلمة (لا إله إلا الله) مطابقة , وإن كانت قد دلت على توحيد الربوبية , والأسماء والصفات بطريق التضمن .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم : والمصنف كثيراً ما يعتمد هذه العبارة , وهي أحسن التعارف وأخصرها .

وسبق تعريف التوحيد , وذكر أقسامه عند شرح كتاب التوحيد .

قوله [وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده] .

فجميع الرسل الذين أرسلهم الله دعوا أقوامهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة .

قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ .

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾ .

فدعوة الرسل في التوحيد واحدة , وفي الشرائع والأحكام مختلفة , كما قال تعالى في شأن التوحيد ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ .

وقال تعالى عن شرائع الرسل ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ .

وقال ﷺ : نحن الأنبياء أبناء علَّات , أمهاتهم شتى , ودينهم واحد . متفق عليه

وورد بلفظ (أولاد) وبلفظ (إخوة) ومعنى (علات) ضرائر .

قال ابن تيمية : فتبين أن دين الأنبياء واحد , وأنهم إخوة للعلات , وهم الذين أبوهم واحد وأمهاتهم شتى , فإن كان بالعكس قيل : أولاد أخياف , وإن اشتركوا في الأمرين قيل : أولاد أعيان .

قوله [فأولهم نوح] قال تعالى ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾ .

وفي حديث الشفاعة يقول الناس لنوح (أنت أول الرسل إلى أهل الأرض) متفق عليه[١] .

وأما قبل نوح فكان الناس كلهم على التوحيد , وإن حصل فيهم تقصير وذنوب .

وأول شرك حصل في الأرض كان في قوم نوح , كما جاء عن ابن عباس قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام[٢] .

قال ابن كثير في كتابه (قصص الأنبياء) : وبالجملة فنوح عليه السلام إنما بعثه الله تعالى لما عبدت الأصنام والطواغيت , وشرع الناس في الضلالة والكفر , فبعثه الله رحمة للعباد , فكان أول رسول إلى أهل الأرض , كما يقول أهل الموقف يوم القيامة .

وذكر ابن كثير أن **أول من عبد الأصنام بعد الطوفان** هم قوم هود , وهم عاد الأولى , وهم قوم من العرب جفاة سكنوا الأحقاف , وهي جبال الرمل , قال ابن كثير : وكانت باليمن بين عُمان وحضرموت .

---

(١) اختلف العلماء في آدم هل هو رسول أو نبي فقط , وأكثر العلماء على أنه نبي , لحديث الشفاعة حيث يقول الناس لنوح (أنت أول الرسل إلى أهل الأرض) متفق عليه.
واختلفوا أيضاً في إدريس عليه السلام هل كان قبل نوح أو بعده .
والذي عليه أهل التاريخ أن إدريس قبل نوح , قال الطبري في تفسيره : وأما أهل الأنساب فإنهم يقولون : إدريس جد نوح .
وهذا الذي اختاره ابن تيمية , وابن كثير , وغيرهم , وهو ظاهر اختيار البخاري .
قال البخاري : باب ذكر إدريس عليه السلام , وهو جد أبي نوح , ويقال : جد نوح عليهما السلام .
وفي الباب الذي قبله قال رحمه الله : يُذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس .
قال ابن حجر : وكأن المصنف رجح عنده كون إدريس ليس من أجداد نوح , فلهذا ذكره بعده .
قلت : ليس بظاهر أبداً , خاصة أنه ذكره بصيغة التمريض .
وذهب القرطبي إلى أنه من أنبياء بني إسرائيل , لحديث الإسراء الآتي , وكذلك اختار شيخنا ابن عثيمين أنه بعد نوح , لقوله تعالى ﴿ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ﴾ وحديث الشفاعة حيث ذكر الناس أن نوحاً أول الرسل .
قال ابن حجر : وقد أخذ أبو بكر بن العربي من هذا أن إدريس لم يكن جداً لنوح , وإنما هو من بني إسرائيل , لأن إلياس قد ورد أنه من بني إسرائيل , واستدل على ذلك بقوله عليه السلام للنبي ﷺ (مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح) ولو كان من أجداده لقال له كما قال له آدم وإبراهيم (والابن الصالح) وهو استدلال جيد إلا أنه قد يجاب عليه بأنه قال ذلك على سبيل التواضع والتلطف , فليس ذلك نصاً كما زعم أ.هـ
وقال ابن كثير في قصص الأنبياء : وقد زعم بعضهم أن إدريس لم يكن قبل نوح , بل في زمان بني إسرائيل . قال البخاري : ويذكر عن ابن مسعود وابن عباس أن إلياس هو إدريس , واستأنسوا في ذلك بما جاء في حديث الزهري عن أنس في الإسراء : أنه لما مرّ به عليه السلام قال له : مرحباً بالأخ الصالح , والنبي الصالح ، ولم يقل كما قال آدم وإبراهيم : مرحباً بالنبي الصالح , والابن الصالح ، قالوا : فلو كان في عمود نسبه لقال له كما قالا له .
وهذا لا يدل ولابد ، لأنه قد لا يكون الراوي حفظه جيداً ، أو لعله قاله على سبيل الهضم والتواضع ، ولم ينتصب له في مقام الأبوة كما انتصب لآدم أبي البشر وإبراهيم الذي هو خليل الرحمن ، وهو أكبر أولي العزم بعد محمد صلوات الله عليهم أجمعين أ.هـ
وقال ابن تيمية في كتاب النبوات عن نوح : وقد ثبت في الصحيح أنه أول رسول بُعث إلى أهل الأرض , وقد كان قبله أنبياء كشيث , وإدريس , وقبلهما آدم كان نبياً مكلماً .
وقال ابن حجر : ونقل بعضهم الإجماع على أنه جد لنوح , وفيه نظر , لأنه إن ثبت ما قال ابن عباس أن إلياس هو إدريس لزم أن يكون إدريس من ذرية نوح , لا أن نوحاً من ذريته لقوله تعالى في سورة الأنعام (ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان...إلى أن قال ...وعيسى وإلياس) فدل على أن إلياس من ذرية نوح , سواء قلنا إن الضمير في قوله (ومن ذريته) لنوح أو لإبراهيم , لأن إبراهيم من ذرية نوح أ.هـ

(٢) وقد نسب غير واحد هذا الأثر إلى صحيح البخاري , وأظنهم تبعوا ابن كثير , حيث نسبه في قصص الأنبياء للبخاري , والحق أنه ليس في البخاري , لكن رواه ابن جرير في تفسيره , والحاكم , وقال الحاكم : على شرط البخاري . ووافقه الذهبي , والألباني .
– وأما القرن فقد أُختلف في تحديده : هل هو مائة سنة , أو أقل , أو أكثر , أو المراد به الجيل الذين يكونون في زمن واحد .

وذكر رحمه الله أن ذلك بيّن في قول هود لهم ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ .

ثم تتابعت الرسل حتى بعث الله إبراهيم عليه السلام , ومنذ أن بعث الله نبيه إبراهيم عليه السلام وأمره ببناء البيت على التوحيد ، واستوطنت ذريته من جهة ابنه إسماعيل مكة ، ومعظم العرب يدينون بدينه ، ويتبعون ملته , فكانوا يعبدون الله ويوحدونه ، ويلتزمون شعائر دينه الحنيف ، وظل الحال على ذلك قروناً من الزمان حتى بدأ الانحراف يدب إليهم مع طول العهد وتقادم الزمن(١).

وكان أول من غير ملة إبراهيم ودعا إلى عبادة الأصنام ، عمرو بن لحي الخزاعي ، حين قدم بلاد الشام فرآهم يعبدون الأصنام والأوثان من دون الله ، فاستحسن ذلك وظنه حقاً ، وكانت الشام آنذاك محل الرسل , والكتب السماوية ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا , ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : ألا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ، فأعطوه صنماً يقال له (هُبل) فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه ، ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة , لأنهم ولاة البيت , وأهل الحرم ، حتى انتشرت الأصنام بين قبائل العرب .

وقد ذُكر عنه أنه كان له رئي من الجن ، فأخبره أن أصنام قوم نوح – وداً , وسواعاً , ويغوث , ويعوق , ونسراً – مدفونة بجدة ، فأتاها فاستثارها ، ثم أوردها إلى تهامة ، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل ، فذهبوا بها إلى أوطانهم ، فأما ود : فكانت لكلب ، بجَرَش بدَوْمَة الجندل من أرض الشام مما يلي العراق ، وأما سواع : فكانت لهذيل بن مُدْرِكة بمكان يقال له : رُهَاط من أرض الحجاز ، من جهة الساحل بقرب مكة ، وأما يغوث : فكانت لبني غُطَيف من بني مراد ، بالجُرْف عند سبأ ، وأما يعوق : فكانت لهمدان في قرية خَيْوان من أرض اليمن ، وخيوان : بطن من همدان ، وأما نسر : فكانت لحمير لآل ذى الكلاع في أرض حمير .

قال ابن كثير : عمرو هذا هو ابن لحي بن قَمَعَة ، أحد رؤساء خزاعة ، الذين ولَوا البيت بعد جرهم , وكان أول من غير دين إبراهيم الخليل ، فأدخل الأصنام إلى الحجاز ، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب بها ، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها ، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام عند قوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ إلى آخر الآيات في ذلك أ.هـ

وكان عمرو بن لحي من ملوك الحجاز , لأن خزاعة هم ملوك الحجاز آنذاك , وكان في أول أمره رجلاً صالحاً ناسكاً .

ولذا ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب من الفوائد : أن الردة وعبادة الأصنام قد يكون سببها فعل بعض الصالحين , والتفطن لما أعطي عمرو من الأعمال , ومن الكمال , ومن الملك , ومن طاعة الناس له(٢) .

وقد وردت عدة أحاديث في ذم عمرو بن لحي , فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبو خزاعة أبا بني كعب هؤلاء يجر قصبه في النار . متفق عليه

وفي البخاري عن عروة أن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً , ورأيت عمراً يجر قصبه , وهو أول من سيب السوائب .

---

(١) قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : ومنذ ظهر إبراهيم لم يعدم التوحيد في الأرض , كما قال تعالى ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ﴾ .

(٢) الدرر السنية ج٢ ص١٤٧ .

ثم بعث الله خاتم رسله محمداً ﷺ فنشر التوحيد في الأرض بعد جهاد طويل مع قومه , ثم أكمل أصحابه رضي الله عنهم هذا الطريق , حتى بلغوا أقصى شرق الأرض وأقصى غربها مصداقاً لوعده ﷺ ولم تزل أمته على هذا التوحيد حتى ظهرت المشاهد والقبور **في آخر المائة الثالثة على أيدي الروافض** .

وقد كانت بلاد المسلمين في عافية من كل هذا الخرافات منذ انتشرت دعوة التوحيد على يد آخر الرسل ﷺ .

يقول ابن تيمية : ولم يكن على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم من ذلك شيء في بلاد الإسلام ، لا في الحجاز ، ولا اليمن ، ولا الشام ، ولا العراق ، ولا مصر ، ولا خراسان ، ولا المغرب ، ولم يكن قد أحدث مشهد ، لا على قبر نبي ، ولا صاحب ، ولا أحد من أهل البيت ، ولا صالح أصلاً ، بل عامة هذه المشاهد محدَثة بعد ذلك ، وكان ظهورها وانتشارها حين ضعفت خلافة بني العباس ، وتفرقت الأمة ، وكثر فيهم الزنادقة الملبّسون على المسلمين ، وفشت فيهم كلمة أهل البدع ، وذلك من دولة المقتدر في أواخر المائة الثالثة , فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القدّاحية في أرض المغرب ، ثم جاؤوا بعد ذلك إلى أرض مصر .

ويقول رحمه الله : ولم يكن في العصور المفضلة مشاهد على القبور ، وإنما كثر بعد ذلك في دولة بني بويه لما ظهرت القرامطة بأرض المشرق والمغرب ، وكان بها زنادقة كفار مقصودهم تبديل دين الإسلام ، وكان في بني بويه من الموافقة لهم على بعض ذلك .

قوله [لما غلوا في الصالحين .....] .

الغلو في الأشخاص : مجاوزة الحد قدحاً أو مدحاً . ودليل غلوهم يأتي من كلام ابن عباس .

وقد بوب المصنف في كتاب التوحيد (باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم , وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين) وذكر النصوص على ذلك .

قوله [وآخر الرسل محمد ﷺ] والدليل قوله تعالى ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾[1] .

قوله [وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين] .

جاء عند مسلم عن ابن مسعود قال : دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصباً , فجعل يطعنها بعود في يده وهو يقول : جاء الحق , وزهق الباطل , إن الباطل كان زهوقاً , جاء الحق , وما يبدئ الباطل وما يعيد .

فهو ﷺ كسر الأصنام التي حول الكعبة بيده , وأرسل من يكسر الأصنام في بعض المواضع , وأمر بتكسير الأصنام في كل مكان , وعليه فمراد المصنف بقوله (كسر صور هؤلاء الصالحين) أنه أمر بتكسيرها – لأن هذه الأصنام لم تكن من الأصنام التي حول الكعبة , ولا داخل الكعبة – كما يقال : الملك بنى هذا القصر . والمراد : أمر ببنائه .

وقد جاء في البخاري عن ابن عباس قال : صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب , أما (ود) فكانت لكلب بدومة الجندل , وأما (سواع) فكانت لهذيل , وأما (يغوث) فكانت لمراد , ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ , وأما (يعوق) فكانت لهمدان , وأما (نسر) فكانت لحمير ، لآل ذي الكلاع , أسماء رجال صالحين من قوم نوح , فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم , ففعلوا فلم تعبد , حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت .

وذكر ابن تيمية أن هذه الأوثان التي عند العرب إن لم تكن بأعيانها ما عند قوم نوح , وإلا فهي نظائرها .

---

(١) وقد صح أن عيسى عليه السلام ينزل آخر الزمان , لكنه يحكم بشريعة محمد ﷺ لا بشريعة الإنجيل .

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في فوائد قصة الشرك الذي حصل في الأرض : كون صور الصالحين يبعث عليها أول الرسل , ولم يكسرها إلا خاتم الرسل[١] .

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم : فانظر إلى آثار الشرك وعروقه إذا علقت متى تزول وتنمحي ؟ فإن هذه الأصنام بقيت من يوم عبدت من دون الله حتى بعث محمد ﷺ وكسرها .

وقال أيضاً : فيفيدك عظم الشرك إذا خالط القلوب صعب زواله , كيف أن أصناماً عبدت على وقت أول الرسل وما كسرها إلا آخرهم .

(١) الدرر السنية ج٢ ص١٤٨ .

أرسله الله إلى أناس يتعبدون , ويحجون , ويتصدقون , ويذكرون الله , ولكنهم يجعلون بعض المخلوقين وسائط بينهم وبين الله عز وجل , يقولون : نريد منهم التقرب إلى الله تعالى , ونريد شفاعتهم عنده , مثل : الملائكة , وعيسى , ومريم , وأناس غيرهم من الصالحين .

فبعث الله تعالى محمداً ﷺ يجدد لهم دينهم – دين أبيهم إبراهيم – ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله تعالى , لا يصلح منه شيء لغيره , لا لَمَلَك مقرب , ولا نبي مرسل , فضلاً عن غيرهما .

وإلا فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له , وأنه لا يرزق إلا هو , ولا يحي , ولا يميت إلا هو , ولا يدبر الأمر إلا هو , وأن جميع السماوات السبع ومن فيهن , والأرضين السبع ومن فيها كلهم عبيده , وتحت تصرفه وقهره .

فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يشهدون بهذا فاقرأ عليه ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ ﴾ الآية , وقوله تعالى ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا ﴾ إلى قوله ﴿ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات .

خلاصة هذا المقطع : بيان حال كفار قريش اعتقاداً , وعملاً , وبيان السبب الموجب لكفرهم .

وسبق في شرح (القواعد الأربع) أن كفار قريش كانوا يقرون بتوحيد الربوبية جملة , وزاد المصنف هنا أن هؤلاء المشركين كان عندهم أعمال يتقربون بها لله تعالى , ومع هذا الإقرار المجمل بأفراد الربوبية , وهذه الأعمال التي يتقربون بها لله لم ينفعهم ذلك , بل دعاهم النبي ﷺ للتوحيد , وبين لهم أن هذه الأعمال لا تنفعهم عند الله , والسبب في ذلك أنهم اتخذوا وسائط بينهم وبين الله تعالى , وهذا هو عين الشرك . وهذا الصنيع هو ما عليه عباد القبور اليوم .

أولاً : اعتقاد كفار قريش :

١. في الربوبية : كان عندهم إقرار مجمل بهذا النوع من التوحيد , فأكثرهم يقر بأكثر أفراد هذا النوع من التوحيد .

والأدلة على ذلك كثيرة جداً , منها ما ذكره المصنف هنا .

وسبق في شرح (القواعد الأربع) بيان حقيقة إقرار الكفار بالربوبية , وأنه يوجد عند بعضهم إنكار لبعض أفراد الربوبية , كنسبة إيجاد الخير والشر لغير الله , وكإنكار البعث , وغير ذلك .

٢. في الأسماء والصفات : كان عندهم إقرار مجمل بهذا النوع من التوحيد , فكانوا يصفون الله بصفات الكمال المستقرة بداهة في الفطر : كالقدرة , والخلق..... وكثير من أفراد الربوبية , كما كانوا يثبتون صفات الكمال لله , كالعلم , والعزة , كما قال تعالى عنهم ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ .

ومن هذا الباب قول زهير : فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

فأثبت العلم لله .

ومن ذلك إثبات العلو لله عز وجل , وأنه في السماء , كما في قوله تعالى ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ ﴾ .

وقال عنترة : يا عبل أين من المنية مهربي إن كان ربي في السماء قضاها

قال الشيخ سليمان بن عبد الله في تيسير العزيز الحميد : والكفار يقرون بجنس هذا النوع ، وإن كان بعضهم قد ينكر بعض ذلك ، إما جهلاً , وإما عناداً , كما قالوا : لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة ، فأنزل الله ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ .

قال ابن كثير : والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم , فإنه قد وجد في بعض أشعار الجاهلية تسمية الله بالرحمن . قال الشاعر : وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق .

وقال الآخر : ألا قضب الرحمن ربي يمينها . وهما جاهليان[1] .

وقال أيضاً : ولم يعرف عنهم إنكار شيء من هذا التوحيد ، إلا في اسم الرحمن خاصة ، ولو كانوا ينكرونه لردوا على النبي ﷺ ذلك ، كما ردوا عليه توحيد الألوهية أ.هـ

وهذا كلام مفيد جداً ينفع في الرد على المعطلة , ولذا قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : الكفار أعقل ممن أنكر الصفات .

كما كان عند بعضهم إيمان بالبعث , والحساب ، كما قال زهير :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجل فينقم

وإن كان الأكثر على إنكار البعث , كما في آيات كثيرة من كتاب الله , كقوله تعالى ﴿ وَقَالُواْ أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ بل هذا الأمر من أخص ما أنكره أهل الجاهلية .

وكان عند بعضهم إيمان بالقدر , كما في قول عنترة :

يا عبلُ أين من المنية مهربي إن كان ربي في السماء قضاها

بل قال ثعلب , وهو أحد أئمة اللغة : ما في العرب إلا مثبت للقدر , أهل الجاهلية والإسلام .

وقال ابن تيمية : العرب كلهم يثبتون القدر .

٣. في الألوهية : لم يكن عندهم إنكار لاستحقاق الله للعبادة ، بل كانوا يصرفون كثيراً من الأعمال لله كما يأتي ، ولكن كانت عندهم مشاركة في العبادة ، فلم يكن كفرهم في هذا النوع كفر **تعطيل** ، وإنما كفر **تشريك** ، قال تعالى ﴿ فَقَالُواْ هَذَا لِلّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَآئِنَا ﴾ .

قال في تيسير العزيز الحميد : ولفظ الشرك يدل على أن المشركين كانوا يعبدون الله ، ولكن يشركون غيره من الأوثان .

---

(١) وأول البيت : عجلتم علينا إذ عجلنا عليكم وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق .

وأول البيت : ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ألا قضب الرحمن ربي يمينها

ثانياً : أعمال كفار قريش :

كان عند كفار قريش أعمال قلبية وعملية يتقربون بها إلى الله ، ومنها :

١. الدعاء : قال تعالى ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ... ﴾ .

٢. الصلاة : كما جاء عند مسلم عن أبي ذر ﷺ قال : وقد صليت يا ابن أخي قبل أن ألقى رسول الله ﷺ بثلاث سنين . قلت : لمن ؟ قال : لله . قلت : فأين توجه ؟ قال : أتوجه حيث يوجهني ربي .

٣. الحج : كما جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ بعث من ينادي في الناس ألا يحج بعد العام مشرك .

وما جاء في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك .

٤. الصوم : كما جاء في الصحيحين أن قريشاً كانت تصوم عاشوراء في الجاهلية .

٥. الاعتكاف : كما في حديث عمر : إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام ، فقال له النبي ﷺ : أوف بنذرك . متفق عليه

٦. الإنفاق : قال تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ ...﴾ وقال تعالى﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ ... ﴾ .

٧. الطهارة : كما في قصة امرأة كانت مع زوجها في سفر وكان معهما ماء قليل ، فلما كانت في السفر انقطع عنها الحيض فأرادت أن تغتسل ، فأخذت الماء فاغتسلت به وكان قليلاً فلم يبلغ أن يعممها وبقيا عطاشاً ليس معهما ماء ، وقيل : إنهما هلكا في ذلك ، فضرب بهما مثل في هذا ، وقد قال في ذلك الفرزدق – فيما نسب إليه – يذم رجلاً :

وكنتَ كذات الحيض لم تبق ماءها ولا هي من ماء العذابة طاهر

قال السهيلي عن الغسل : كان معمولاً به في الجاهلية من بقايا دين إبراهيم ، كما بقي فيهم النكاح والحج .

وقال ابن تيمية : كان مشروعاً قبل .

٨. أعمال الخير عموماً : كالصدقة ، وصلة الرحم ، والإحسان إلى الجار ، وعتق الرقاب , وغير ذلك ، كما جاء عند مسلم من حديث عائشة قالت : يا رسول الله : ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم , ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه ؟ قال : لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين .

وجاء عند مسلم أيضاً عن عروة بن الزبير أن حكيم بن حزام أخبره أنه قال لرسول الله ﷺ : أرأيت أموراً كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة , وعتاقة , وصلة رحم أفيها أجر ؟ قال ﷺ : أسلمت على ما أسلفت من خير .

وهذه الأعمال ورثوها من بقايا دين إبراهيم , قبل أن يدخل عليهم عمرو بن لحي الخزاعي الشرك والبدعة , فبقيت هذه الأعمال مع وجود الشرك فيهم .

إذا تحققتَ أنهم مقرون بهذا , وأنه لم يدخلهم في التوحيد الذي دعت إليه الرسل , ودعاهم إليه رسول الله ﷺ , وعرفتَ أن التوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة , الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد)[١] وكانوا يدعون الله سبحانه وتعالى ليلاً ونهاراً .

ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله عز وجل ليشفعوا لهم , أو يدعو رجلاً صالحاً مثل اللات , أو نبياً مثل عيسى , وعرفت أن رسول الله ﷺ قاتلهم على هذا الشرك , ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له , كما قال تعالى ﴿ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾ وقال تعالى ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ الآية , وتحققت أن رسول الله ﷺ قاتلهم ليكون الدعاء كله لله , والذبح كله لله , والنذر كله لله , والاستغاثة كلها بالله , وجميع أنواع العبادة كلها لله , وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام , وأن قصدهم الملائكة , أو الأنبياء , أو الأولياء يريدون شفاعتهم , والتقرب إلى الله بذلك هو الذي أحل دماءهم , وأموالهم .

عرفتَ حينئذ التوحيد الذي دعت إليه الرسل , وأبى عن الإقرار به المشركون .

خلاصة هذا المقطع : بيان الأمر الذي أحل دماء كفار قريش وأموالهم ، وهو الخلل في توحيد العبادة ، وذلك بصرفهم أنواع العبادة لغير الله بقصد التقرب إلى الله بذلك .

بعد أن بين المصنف في المقطع السابق حال كفار قريش اعتقاداً , وعملاً ، بين هنا جانب الخلل عندهم ، وأن إقرارهم , أو أكثرهم بتوحيد الربوبية أو أكثر أفراده لم يدخلهم في الإسلام ، وكذلك الأعمال الكثيرة المتنوعة التي كانوا يتقربون بها إلى الله لم تدخلهم في الإسلام[٢] .

والسبب في ذلك : إخلالهم بتوحيد الألوهية ، وصرف أنواع العبادات لغير الله , كالدعاء , والذبح , والنذر , والاستغاثة ، ظناً منهم أن صرف تلك العبادات لهؤلاء من الأعمال الصالحة التي تقربهم عند الله , وذلك أن هؤلاء الذين صرفوا لهم تلك العبادات – من الملائكة , والأنبياء , والصالحين – لهم جاه ومكانة عند الله , فإذا تقربوا لهم بذلك نفعوهم , وشفعوا لهم عند الله , واعتقدوا أن شفاعة أولئك مقبولة لا ترد .

قال ابن تيمية : من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه , كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك , بل هذا دين المشركين عباد الأوثان , كانوا يقولون : إنها تماثيل الأنبياء , والصالحين ، وإنها وسائل يتقربون بها إلى الله ، وهو من الشرك الذي أنكره الله على النصارى . وقال الشيخ سليمان بن عبد الله : فوجب على كل من عقل عن الله تعالى أن ينظر ويبحث عن السبب الذي أوجب سفك دمائهم , وسبي نسائهم , وإباحة أموالهم , مع هذا الإقرار والمعرفة , وما ذاك إلا لإشراكهم في توحيد العبادة , الذي هو معنى لا إله إلا الله .

---

(١) قال الشيخ محمد بن إبراهيم : يقولون (فلان فيه عقيدة) يعني : يصلح أن يعتقد فيه أنه ينفع .

(٢) ولذا قال رحمه الله في القواعد الأربع : اعلم أن العبادة لا تسمى عبادة – يعني معتبرة ومقبولة – إلا مع التوحيد , كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة , فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت كالحدث إذا دخل في الطهارة .

وهذا التوحيد هو معنى قولك (لا إله إلا الله) فإن (الإله) عندهم هو الذي يُقصد لأجل هذه الأمور , سواءً كان مَلكاً , أو نبياً , أو ولياً , أو شجرةً , أو قبراً , أو جنياً , لم يريدوا أن (الإله) هو الخالق , الرازق , المدبر , فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده , كما قدمتُ لك , وإنما يعنون بـ(الإله) ما يعني المشركون في زماننا بلفظ (السيد) فأتاهم النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد , وهي لا إله إلا الله .

خلاصة هذا المقطع : بيان حقيقة معنى (الإله) وبيان أن الكفار الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ أعلم من المشركين المتأخرين بمعنى (لا إله إلا الله) ولذلك أنكروا قبولها بعد العلم بمعناها ومقتضاها , وأما المتأخرون فادعوها بأفواههم وكفروا بها بأفعالهم .

يبين المصنف هنا أن المشركين عرفوا حقيقة معنى (الإله) وأنه الذي يُقصد ويتوجه إليه ، فهو المقصود بجلب النفع , ودفع الضر ، وهو المدعو , المرجو ، المعتمد عليه ، وليس معناه عندهم الرب , الخالق , الرازق , بل لا يُعرف (الإله) في لغة العرب بأنه السيد , والمالك , والمدبر , والقيم , والمنعم , ونحو ذلك , وإنما معناه في لغتهم : مَن تألهه القلوب , وتحبه , وتقصده .

وهذا المعنى أجمع عليه أهل السنة والجماعة[١] , وأما غيرهم من الجهمية , والأشاعرة , والقبورية من الصوفية , والرافضة , فالإله عندهم بمعنى (الرب) ففسروا توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية .

والسبب في هذا الفهم المغلوط هو تأثرهم بكتب الفلسفة والمنطق والنظر فيها ، ولذا تجد في كتب هؤلاء من يعرف(الإله) بأنه : القادر على الاختراع , ومنهم من يعرفه بأنه : المستغني عما سواه ، والمفتقر إليه كل ما عداه[٢] , ومنهم من يعرفه بأنه واحد في ذاته لا قسيم له , واحد في صفاته لا شبيه له , واحد في أفعاله لا شريك له .

وهذه المناهج الدراسية في دول العالم الإسلامي اليوم شاهدة على ذلك , والله المستعان .

وهذا الخلل العظيم في فهم كلمة التوحيد هو الذي أنتج الخلل في النتيجة ، حيث قصروا الشرك على الشرك في الربوبية ، ولذا تجد كثيراً منهم يتوجهون إلى غير الله من الأحياء والأموات يرجونهم , ويخافونهم , ويذبحون لهم , ويستغيثون بهم ، إلى غير ذلك من الأمور المنافية لأصل التوحيد .

وكفار قريش فهموا أن تلك الأمور هي التي دعاهم النبي ﷺ إلى صرفها لله وحده ، ولذا عارضوه , وكفروا به ، فلما قال لهم ﷺ (قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا) قالوا ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً ﴾ فسموا من تصرف له تلك الأمور (آلهة) – وهي كذلك – وأما المتأخرون فصرفوا تلك الأمور لغير الله ، لكنهم لم يسموا الذي صرفوا له (آلهة) بل زخرفوا القول ، فبعضهم يسميه (السيد)[٣] ، وبعضهم يسميه (الولي) , وبعضهم يسميه (السر) أو (الذي فيه السر)[٤] , وبعضهم يسميه (الشيخ) .

ومعنى هذه الألفاظ المتباينة في المبنى , المترادفة في المعنى أن (السيد) أو (الولي) أو (الشيخ) أو (صاحب السر) يصلح أن يُدعى , و يُرجى , ويُخاف منه , ويُتوكل عليه , ويُذبح له , وتُصرف له أنواع من العبادات ، وأن الله جعل لخواص خلقه منزلة

---

(١) قال محمد بن عبد الوهاب : واعلم أن معنى (الإله) هو المعبود . هذا هو تفسير هذه اللفظة بإجماع أهل العلم . الدرر السنية ج٢ص١٠٣

(٢) وهذا التعريف جاء في كتاب السنوسية المسماة أم البراهين ، في عقائد الأشاعرة , والتي تدرس اليوم في الأزهر وغيره .

(٣) كما يقال : السيد البدوي ، السيد الحسين ، السيد العيدروس ، السيد المرغني , السيدة زينب .

(٤) لأنهم يعتقدون أن لروحه سراً ، فالسر عندهم هي الروح التي يُعتقد فيها النفع والضر .

يرضى أن الإنسان يلتجئ إليهم , ويرجوهم في النوازل , ويستغيث بهم في الشدائد , ويجعلهم واسطة بينهم وبين الله , ويحلف بأسمائهم , وينحر لهم .... الخ . إذن فما بقي لله ؟!! والله المستعان .

قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب : والعرب الأولون يسمون الألوهية ما يسميها عوامنا (السر) لأن السر عندهم هو القدرة على النفع والضر , وكونه يصلح أن يُدعى , ويُرجى , ويُخاف , ويُتوكل عليه .

وقال أيضاً : فاعلم أن هذه الألوهية هي التي تسميها العامة في زماننا (السر) و(الولاية) فالإله معناه : الولي الذي فيه السر , وهو الذي يسمونه (الفقير) و(الشيخ) وتسميه العامة (السيد) وأشباه هذا , وذلك أنهم يظنون أن الله جعل لخواص الخلق منزلة يرضى أن الإنسان يلتجىء إليهم , ويرجوهم , ويستغيث بهم , ويجعلهم واسطة بينه وبين الله .

وقال الشوكاني في كتابه (الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد) : فمن زعم أن ثَم فرقاً بين من اعتقد في وثن من الأوثان أنه يضر أو ينفع ، وبين من اعتقد في ميت من بني آدم أو حي أنه يضر أو ينفع , أو يقدر على أمر لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فقد غلط غلطاً بيناً ، وأقر على نفسه بجهل كثير ، فإن الشرك هو دعاء غير الله في الأشياء التي تختص به , أو اعتقاد القدرة لغيره فيما لا يقدر عليه سواه ، أو التقرب إلى غيره بشيء مما لا يتقرب به إلا إليه .

ومجرد تسمية المشركين لما جعلوه شريكاً بـ(الصنم , والوثن , والإله) ليس فيه زيادة على التسمية بـ(الولي , والقبر , والمشهد) كما يفعله كثير من المسلمين , بل الحكم واحد إذا حصل لمن يعتقد في الولي والقبر ما كان يحصل لمن كان يعتقد في الصنم والوثن , إذ ليس الشرك هو مجرد إطلاق بعض الأسماء على بعض المسميات , بل الشرك هو أن يفعل لغير الله شيئاً يختص به سبحانه , سواء أطلق على ذلك الغير ما كان تطلقه عليه الجاهلية , أو أطلق عليه اسماً آخر , فلا اعتبار بالاسم قط , ومن لم يعرف هذا فهو جاهل لا يستحق أن يُخاطَب بما يخاطب به أهل العلم أ.هـ

إذاً حقيقة معنى (لا إله إلا الله) : لا أحد يُقصد غير الله , وهذا الذي فهمه المشركون , وهو الحق , ولذلك لما أنكروا وخالفوا هذا المعنى دعاهم النبي ﷺ إلى التوحيد , فدل أنهم كانوا غير موحدين , فمن فعل فعلهم من المتأخرين بأن قصد غير الله , أو جعله واسطة فهو مشرك بالله العظيم ، وإن كان غير اللفظ وبدله , وزخرفه مادام المعنى موجوداً .

قال ابن تيمية : من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك , بل هذا دين المشركين عباد الأوثان ..... وهو من الشرك الذي أنكره الله على النصارى .

وقال أيضاً : وهذا المقام مقام وأي مقام , زلت فيه أقدام , وضلت فيه أفهام , وبُدل دين المسلمين , والتبس فيه أهل التوحيد بعباد الأصنام على كثير ممن يدعون نهاية التوحيد والتحقيق والمعرفة والكلام .

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب عن عباد القبور : صاروا يقولون (لا إله إلا الله) والشرك قد قام في قلوبهم , واتخذوه ديناً , فأثبتوا ما نفته هذه الكلمة من عبادة غير الله , وأنكروا ما دلت عليه من الإخلاص[1] .

---

(١) الدرر السنية ج٢ص٢١٥

والمراد من هذه الكلمة معناها لا مجرد لفظها , والكفار الجهال يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو : إفراد الله تعالى بالتعلق , والكفر بما يعبد من دونه , والبراءة منه , فإنه لما قال لهم (قولوا : لا إله إلا الله) قالوا ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ .

فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك , فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرف جهال الكفار , بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني , والحاذق منهم يظن أن معناها : لا يخلق , ولا يرزق , ولا يدبر إلا الله .

فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعاني لا إله إلا الله .

خلاصة هذا المقطع : بيان أحوال الناس في معنى (لا إله إلا الله) .

يذكر المصنف هنا مسألة مهمة وهي بيان معنى (لا إله إلا الله) إذ فهم حقيقة هذه الكلمة من أهم الأمور , فهي البوابة لدخول الإسلام والجنة , وهي البوابة للخروج من الإسلام إلى النار , ولذلك لابد من فهمها فهماً صحيحاً , وإن كثيراً من الطوائف لم تفهم معنى هذه الكلمة الفهم الصحيح .

والأصناف الذين خالفوا في هذه الكلمة أنواع , وقد ذكر المصنف بعضاً منهم ، وهم :

١. من فهم معنى هذه الكلمة فهماً تاماً , ولكنهم عاندوا في تحقيقها , وهؤلاء هم كفار العرب الذين بُعث إليهم النبي ﷺ فقد كانوا يعلمون أن مجرد اللفظ لا يكفي , وأنه لابد من اعتقاد معناها , والعمل بمقتضاها , وعلموا أن معناها لا معبود يستحق العبادة إلا الله , ولا يجوز التعلق بغيره , ولذا لم يقولوها , لأنهم يعتقدون أن غير الله يستحق العبادة .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم : فإن أبا جهل وأضرابه لو يعلمون أن هذا هو المراد لما تلعثموا في قولها ولا نازعوا ، وكذلك لو فهموا أن المراد الربوبية لسارعوا إلى ذلك ولم ينازعوا ، لكن علموا أن معناها أن يكون الإله المعبود هو الله وحده دون كل ما سواه ، والتبري مما سواه , وأنه لا بد من اعتقاد ذلك , ووجوده في العمل ، وأنها تُبطل جميع ما هم عليه من دين آبائهم وأجدادهم .

٢. من يعتقد أن من تلفظ بهذه الكلمة لا يكفر ، فمن نطق بها فهو مسلم , ويأتي الرد مطولاً على هذه الشبهة إن شاء الله .

قال الشوكاني في كتابه (الدر النضيد) : فإن قلتَ : إن المشركين كانوا لا يقرون بكلمة التوحيد ، وهؤلاء المعتقدون في الأموات يقرون بها . قلتُ : هؤلاء إنما قالوها بألسنتهم وخالفوها بأفعالهم ، فإن من استغاث بالأموات أو طلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه ، أو عظمهم , أو نذر عليهم بجزء من ماله , أو نحر لهم , فقد نزلهم منزلة الآلهة التي كان المشركون يفعلون لها هذه الأفعال ، فهو لم يعتقد معنى (لا إله إلا الله) ولا عمل بها ، بل خالفها اعتقاداً وعملاً ، وهو في قوله (لا إله إلا الله) كاذب على نفسه ، فإنه قد جعل إلهاً غير الله يعتقد أنه يضر وينفع ، وعبده بدعائه عند الشدائد , والاستغاثة به عند الحاجة ، وبخضوعه له وتعظيمه إياه نحر له النحائر ، وقرب إليه نفائس الأموال .

وليس مجرد قول (لا إله إلا الله) من دون عمل بمعناه مثبتاً للإسلام ، فإنه لو قالها أحد من أهل الجاهلية وعكف على صنمه يعبده لم يكن ذلك إسلاماً أ.هـ

٣. من فهم منها معاني الربوبية فقط ، فلا إله إلا الله . تعني عندهم : لا رب إلا الله ، ولا خالق إلا الله , ولا قادر على الاختراع إلا الله ، وهؤلاء هم المتعلمون الجهال , من أصحاب المدارس الكلامية , وهم الذين عناهم الشيخ بقوله (والحاذق منهم ...) ويشمل الأشاعرة , والجهمية , والرافضة , والباطنية , والصوفية القبورية .

يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن : فالخصومة بين الرسل وأممهم ليست في وجود الرب وقدرته على الاختراع , فإن الفطر والعقول دلتهم على وجود الرب[١] .

وهؤلاء ادّعوا التوحيد , ورموا بالشرك من ظن في الأموات تدبيراً , أو إيجاداً ، أما الاستغاثة بهم , ودعاءهم , والذبح لهم فليست شركاً , نسأل الله العافية . ويأتي الرد على هذه الشبهة إن شاء الله .

وعلى هذا الاعتقاد يكون النبي ﷺ قاتل أناساً موحدين , لأن كفار قريش كانوا يقرون جملة بأفراد الربوبية .

وأسعد الناس بفهم معنى هذه الكلمة هم أهل السنة والجماعة المتبعين للأثر ، حيث أعطوا هذه الكلمة العظيمة حقها من الفهم ، فقالوا : لا بد فيها من اجتماع الاعتقاد , والقول , والعمل ، ولا بد من اجتماع شروطها ، والبعد عن نواقضها , فمن أخل بشيء من ذلك صار كافراً في حكم الشرع ، وإن ردد مراراً : لا إله إلا الله . وفهم هذا المعنى من أهم المسائل ، والله المستعان .

---

(١) الدرر السنية ج٢ص٢٣٤

إذا عرفت ما قلت لك معرفة قلب ، وعرفت الشرك بالله الذي قال الله فيه ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ الآية ، وعرفت دين الله الذي بعث به الرسل من أولهم إلى آخرهم ، الذي لا يقبل الله من أحد سواه ، وعرفت ما أصبح غالب الناس عليه من الجهل بهذا , أفادك فائدتين :

الأولى : الفرح بفضل الله ورحمته ، كما قال تعالى ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ الآية .

وأفادك أيضاً : الخوف العظيم ، فإنك إذا عرفت أن الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه , وقد يقولها وهو جاهل , فلا يعذر بالجهل[١] , وقد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله كما ظن الكفار ، خصوصاً إن ألهمه الله ما قص عن قوم موسى عليه السلام مع صلاحهم وعلمهم[٢] أنهم أتوه قائلين ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ فحينئذ يعظم خوفه وحرصه على ما يخلصه من هذا وأمثاله .

خلاصة هذا المقطع : التنبيه على الفائدتين المذكورتين هنا .

بعد أن بين المصنف للقارئ ما سبق من : بيان دعوة الرسل جميعاً ، وبيان حال مشركي قريش ، وبيان حال الناس مع كلمة التوحيد ، ذكَّره بأمرين :

الأول : الفرح بفضل الله ورحمته , حيث عرَّفه التوحيد , ولم يجعله من الجاهلين .

قال ابن القيم في نونيته : واجعل لقلبك مقلتين كليهما من خشية الرحمن باكيتان

لو شاء ربك كنتَ أيضاً مثلهم فالقلب بين أصابع الرحمن

والثاني : أن هذه المعرفة يجب أن يصاحبها الخوف من الشرك , وهذا من تمام المعرفة بالتوحيد , لأن الإنسان قد يقع في الشرك وهو لا يدري , كما حصل من قوم موسى[٣] .

والخوف من الشرك مع معرفة التوحيد هو طريق المرسلين , فإمام الموحدين إبراهيم عليه السلام الذي كسر الأصنام بيديه يقول في دعائه لربه عز وجل ﴿ واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ﴾ .

قال إبراهيم التيميّ : ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم . رواه ابن جرير .

وقد عقد المصنف باباً في كتاب التوحيد فقال : باب الخوف من الشرك .

وقال رحمه الله عند قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ : شدة الحاجة إلى تعلم التوحيد , فإذا كان الأنبياء يحتاجون إلى ذلك , ويحرصون عليه , فكيف بغيرهم ، ففيها رد على الجهال الذين يعتقدون أنهم عرفوه , فلا يحتاجون إلى تعلمه أ.هـ

---

(١) وهذه العبارة توهم أن الشيخ لا يعذر بالجهل مطلقاً ، وهناك عبارات عكس هذه توهم أن الشيخ يعذر بالجهل مطلقاً ، مثل قوله : إن الجاهل لا نكفره ، بل نعذره ، وهو من أهل الإسلام .

والصحيح أن الشيخ في هذه المسألة على مذهب أهل السنة والجماعة ، وأنه لا يعذر بالجهل مطلقاً ، ولا ينفي العذر بالجهل مطلقاً . ويأتي الكلام عن هذه المسألة المهمة في شرح نواقض الإسلام إن شاء الله تعالى .

(٢) قول الشيخ هنا (مع صلاحهم وعلمهم) فيه نظر , لأن هذا القول حصل منهم بعد مجاوزة البحر , ولا يعرف حال من قال ذلك على وجه الخصوص , والله أعلم .

(٣) والكلام عن قصة موسى سبق في شرح كتاب التوحيد , ويأتي في آخر الرسالة إن شاء الله تعالى .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم : ومن أسباب الخلوص من هذا الداء العضال[١] : التفتيش عن مبادئه , ووسائله , وذرائعه خشية أن تقع فيه وأنت لا تشعر ....ومن أسباب التخلص من هذا : صدق الابتهال إلى الله , وسؤاله التثبيت , وكثيراً ما كان رسول الله ﷺ يدعو بهذا الدعاء (اللهم يا مقلب القلوب والأبصار[٢] ثبت قلبي على دينك) كما ابتهل الخليل عليه السلام إلى الله فقال (رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام) أ.هـ

(١) يقصد الشرك .

(٢) ليس في الحديث (والأبصار) .

وقد ورد في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك . رواه مسلم

وورد في حديث أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت : كان أكثر دعائه ﷺ : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك . رواه الترمذي , وقال : حديث حسن , وصححه الألباني .

واعلم أن الله سبحانه من حكمته لم يبعث نبياً بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء ، كما قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ ﴾ الآية .

وقد يكون لأعداء التوحيد علوم كثيرة وحجج ، كما قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ الآية .

إذا عرفت ذلك , وعرفت أن الطريق إلى الله لابد له من أعداء قاعدين عليه , أهل فصاحة , وعلم , وحجج , فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يصير سلاحاً تقاتل به هؤلاء الشياطين الذين قال إمامهم ومقدمهم لربك عز وجل ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الآية .

ولكن إن أقبلت على الله تعالى , وأصغيت إلى حجج الله وبيّناته فلا تخف ولا تحزن ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ .

والعامّي من الموحدين يغلب الألف من علماء هؤلاء المشركين , كما قال تعالى ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ فجند الله تعالى هم الغالبون بالحجة واللسان , كما هم الغالبون بالسيف والسنان ، وإنما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح .

وقد من الله علينا بكتابه الذي جعله ﴿ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ فلا يأتي صاحب باطل بحجة إلا وفي القران ما ينقضها , ويبين بطلانها , كما قال تعالى ﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ قال بعض المفسرين : هذه الآية عامة في كل حجة يأتي بها أهل الباطل إلى يوم القيامة .

خلاصة هذا المقطع : تحذير الموحد من أعداء التوحيد ، وبيان حالهم له .

بعد أن أرشد المصنف في المقطع السابق الموحد إلى وجوب تعلم التوحيد ، والخوف من الشرك ، بين له هنا سبباً من الأسباب التي تصد عن هذه المعرفة ، وهم أعداء التوحيد القاعدين لأهله ، وبين له هنا عدة أمور :

١ . **أن هذه العداوة بين الحق والباطل سنة كونية** لا يكاد يسلم منها داعٍ إلى الله ، كما قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ والجِنِ ﴾ وفي الحديث الطويل في بداية الوحي ، قال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ : إنه لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي . متفق عليه

ولهذه السنة الكونية عدة حكم , منها : بيان قوة الحق , وهشاشة الباطل .

يقول ابن تيمية في الفتاوى : ومن سنة الله أنه إذا أراد إظهار دينه أقام من يعارضه .

وقال في الجواب الصحيح : الحق إذا جُحِدَ وعورض بالشبهات أقام الله البينات بما يظهره من أدلة الحق ، وبراهينه الواضحة ، وفساد ما عارضه من الحجج الداحضة , وذلك بما يقيمه الله سبحانه وتعالى من الآيات والدلائل التي يظهر بها الحق من الباطل ، والخالي من العاطل ، والهدى من الضلال ، والصدق من المحال ، والغي من الرشاد ، والصلاح من الفساد ، والخطأ من السداد ، وهذا كالمحنة للرجال التي تميز بين الخبيث والطيب .

وقال شيخنا ابن عثيمين : وذلك أن وجود العدو يمحص الحق ويبينه , فإنه كلما وجد المعارض قويت الحجة .

لطيفة : ذكر شيخنا ابن عثيمين أن هؤلاء المجرمين يعتدون على الرسل وأتباع الرسل بطريقين : التشكيك , والعدوان .

ولذا قال تعالى ﴿ وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ هادياً لمن يحصل له شك , ونصيراً لمن يقع عليه عدوان . بتصرف .

٢. أن هؤلاء الأعداء على ضربين :

أ. جاهلون بما هم عليه ، وإنما يقلدون أسيادهم وأشياخهم في ذلك , وهؤلاء هم الأكثر .

وهؤلاء لهم نصيب من قول الله تعالى عن الكفار ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ والآية التي تليها ﴿ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ .

ب. عندهم علم مغلوط ، يغالطون به الحق ، وشبه يدفعون بها الحق , وهؤلاء قلة ، لكنهم هم الذين يحصل منهم الضرر والصد لأتباعهم , وللموحدين[١] ، قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ الآية[٢] .

٣. أن الصنف الثاني يعرض ما عنده من العلم والشبه بما يغري السامع ويشككه بما عنده بزخرف من القول ، وفصاحة تقلب الحق باطلاً ، والباطل حقاً .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم : لكنها ليست من الحجج الموروثة عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، إنما هي منامات وأكاذيب ، إذا جاء عند التحصيل فهي تخونهم أحوج ما يكونون إليها .

وقال ابن تيمية عند قوله تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ : فأخبر أن جميع الأنبياء لهم أعداء ، وهم شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض القول المزخرف ، وهو المزين المحسن يغرون به ، والغرور : التلبيس والتمويه , وهذا شأن كل كلام , وكل عمل يخالف ما جاءت به الرسل ..... ثم قال ﴿ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ فعلم أن مخالفة الرسل , وترك الإيمان بالآخرة متلازمان ، فمن لم يؤمن بالآخرة أصغي إلى زخرف أعدائهم فخالف الرسل أ.هـ

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم : قال بعضهم : إنه بدأ بشياطين الأنس , لأنهم أعظم في هذا المقام من شياطين الجن , لأن شيطان الإنس يأتي في صورة ناصح محب لين الجانب واللسان .

وقال أيضاً : فإذا كان الطريق الذي هذه صفته مقعود عليه ومرصود عليه بأنواع الصدوف ، وأنواع القيود ، وأنواع السلاح ، وأنواع الحجج والبينات ، وأنواع الكيد والمكر والخداع ، فكيف يأمن الإنسان ولا يخاف ؟!

---

(١) وهؤلاء منهم من يعتقد أن ما معه هو الحق ، ومنهم من يجادل بالباطل وهو يعلمه , والعياذ بالله .

(٢) فانظر كيف سمى ما جاء به (بينات) لوضوحه وبيانه ، وسمى ما عندهم (علم) لأن العلم قد يكون نافعاً ، وقد يكون ضاراً لمعايير كثيرة .

٤. **بعد أن بين المصنف طبيعة الطريق ، وخطورة أعداء التوحيد , حيث يزخرفون الباطل حتى يصير كالحق بما عندهم من الشبهات والضلالات ، بين بعد ذلك سبيل النجاة ، والسلاح الذي يقاوم به أولئك** ، وهو الإقبال على الله , وعلى كتابه بتعلمه , وفهمه ، إذ فيه رد لكل شبهة [١] .

وأنه إن تسلح بذلك فسيرى ضعف الباطل وهشاشته ، كما قال تعالى ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ وما أروع هذا التعبير الذي يبين حقيقة الأمر , وقال تعالى ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ .

ثم بين حال الموحد الذي ليس معه سلاح العلم ، وأنه قد يفتن بذلك وينخذل والعياذ بالله ، كما هو واقع كثير من الناس اليوم الذين تأثروا بأطروحات المضللين في وسائل الإعلام وغيرها ، لعدم العلم الشرعي المؤصل عندهم .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفاً للحق عن مواضعه , فإنه إذا قَبِل الباطل أحبه ورضيه , فإذا جاء الحق بخلافه رده وكذبه إن قدر على ذلك وإلا حرفه .

وقال رحمه الله : فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم , فإنها لو طهرت لما أعرضت عن الحق وتعوضت بالباطل عن كلام الله تعالى ورسوله أ.هـ

إشكال وجوابه : في كلام الشيخ عبارتان ظاهرهما التعارض , واستشكلها بعض الشراح , وهما قوله (والعامّي من الموحدين يغلب الألف من علماء هؤلاء المشركين) وقوله (وإنما الخوف على الموحد الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح) .

ويمكن أن يقال : الأصل أن يتسلح الموحد بالعلم الشرعي ليدفع الشبهات عن نفسه وعن غيره , وإن لم يفعل ذلك فلربما وردت عليه الشبهة فتشربها قلبه فيهلك , وقد يدفعها بما وهبه الله من فطرة سليمة , وعقلٍ راجح .

وذكر الشيخ محمد بن إبراهيم أن المقصود بذلك العلم المجمل , وأن العامي لو كان عنده علم بسيط وأدلة لغلب المبطلين , والخوف على الذي ليس معه سلاح العلم , فإنه يفتن[٢] .

ومن أمثلة ذلك ما ذكره الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب حيث قال : وقد استدل بعض من يدعي العلم على مسألة تصرف الأولياء , وأنهم يُدعون , بقوله تعالى ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فقال بعض عوام المسلمين : إن كانت القراءة (يَرزقون) – بفتح الياء – فذلك متجه , وإلا فالآية حجة عليك .

---

(١) قال مسروق : ما أحد من أصحاب الأهواء إلا في القران ما يرد عليهم , ولكنا لا نهتدي له .

وقال الشعبي : ما ابتدع أحد في الإسلام بدعة إلا وفي كتاب الله ما يكذبه .

وقال أحمد : لو تدبر إنسان القرآن كان فيه ما يرد على كل مبتدع وبدعته .

وقال ابن تيمية : فالقران قد دل على جميع المعاني التي تنازع الناس فيها دقيقها وجليلها .

ونقل ابن القيم في حادي الأرواح عن ابن تيمية قوله : أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله .

(٢) قال الشيخ محمد بن إبراهيم : (والعامي من الموحدين) الذي عرف أدلة دينه , وإن كان ليس بفقيه ولا عالم ، ليس المراد العامي الجاهل ، اللهم إلا أن يوفق العامي الذي لا يعرف لحجة عقلية وهو نادر (يغلب الألف) بل الألوف (من علماء هؤلاء المشركين) لأن حجج المشركين ترهات , وأباطيل , ومنامات كاذبة ، وما كان معهم من الحق فهو رد في الحقيقة عليهم.....(وإنما الخوف على الموحد) العابد لله المستقيم على التوحيد (الذي يسلك الطريق وليس معه سلاح) يذب به عن دينه وهو الحجة والسلاح لم يتعلم أدلة دينه ، فهذا مخوف عليه أن يُقتل , أو يُسلب , أو يبقى أسيراً في يد عدوه الشيطان وجنوده ، يخشى عليه أن يلم به الشيطان وجنوده فيستزلونه عن الطريق السوي .

وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله تعالى في كتابه جواباً لكلام احتج به المشركون في زماننا علينا ، فنقول :

جواب أهل الباطل من طريقين : مجمل ، ومفصل .

أما المجمل فهو الأمر العظيم , والفائدة الكبيرة لمن عقلها ، وذلك قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ الآية ، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : إذا رأيتم الذين يتبعون المتشابه , ويتركون المحكم فأولئك الذين سمى الله في كتابه فاحذروهم[1].

مثال ذلك : إذا قال لك بعض المشركين ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أو أن الشفاعة حق , أو أن الأنبياء لهم جاه عند الله ، أو ذكر كلاماً للنبي ﷺ يستدل به على باطله ، وأنت لا تفهم معنى الكلام الذي ذكره .

فجاوبه بقولك : إن الله تعالى ذكر أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه .

وما ذكرتُ لك من أن الله ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية ، وأنه كفرهم بتعلقهم بالملائكة ، أو الأنبياء ، أو الأولياء ، مع قولهم ﴿ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ ﴾ وهذا أمر محكم لا يقدر أحد أن يغير معناه .

وما ذكرتَه لي – أيها المشرك – من القرآن ، أو كلام رسول الله ﷺ لا أعرف معناه[2] ، ولكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض ، وأن كلام النبي ﷺ لا يخالف كلام الله عز وجل .

وهذا جواب جيد سديد ، ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله تعالى ، ولا تستهونه فإنه كما قال تعالى ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ .

خلاصة هذا المقطع : بيان الطريقة في رد شبه المخالفين .

من هنا بدأ المصنف الكلام عن القسم الثاني من الكتاب ، وهو ذكرُ شبه المبطلين والرد عليها , فقبل أن يرد على هذه الشبه بين الطريقة في رد الشبه , وذكر أن الرد نوعان : رد مجمل ، ورد مفصل .

وذكر في هذا المقطع الرد المجمل فقط ، وذكر على سبيل المثال ثلاثة أدلة يستدل بها أهل الباطل على باطلهم ، ثم ذكر كيفية الرد المجمل على تلك الشبه .

---

(١) جاء في حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ بعد أن تلا قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ قال رسول الله ﷺ : إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم . متفق عليه

(٢) قوله (لا أعرف معناه) يحتمل : لا أعرف الجواب عليه من كلام أهل العلم , ويحتمل : لا أعرف معناه الذي تدعيه .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم في شرحه لقول المصنف (لا أعرف معناه) : لا أعرف دلالته على ما قصدت .

وقال شيخنا : لا أعرف معناه الذي تدعيه , وإنني أنكره ولا أقر به .

وخلاصة هذه الطريقة أن نقول : إذا جاء المخالف بدليل يستدل به على باطله ، نقول له : إن أدلة الشرع لا تتعارض أبداً[١] ، قال تعالى ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً ﴾ وما أتيتَ به من الحق لخدمة الباطل أمر مشتبه ومشكل ، والأمر المحكم الواضح خلافه ، فأنا ألزم المحكم وأترك المتشابه ، لأن هذا هو طريق أهل الحق الذين وصف الله ، وأما طريقك فهو طريق أهل الزيغ الذين يتبعون المتشابه ، كما قال تعالى ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ قال رسول الله ﷺ : إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم . متفق عليه .

فالله سبحانه أمر بالرجوع إلى المحكم بقوله ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ يعني المرجع في الكتاب ، وهذا يقتضي تفسير المتشابه به وإرجاعه إليه حتى لا يحصل التناقض في كلام الله تعالى ، وأما أهل الزيغ فيتبعون الآيات المتشابهة يلبسون بها على الجهال .

قال ابن القيم : قسم الله سبحانه الأدلة السمعية إلى قسمين : محكم ، ومتشابه . وجعل المحكم أصلاً للمتشابه وأُمّاً له يُرد إليه ، فما خالف ظاهر المحكم فهو متشابه يرد إلى المحكم ، وقد اتفق المسلمون على هذا أ.هـ

فطريقة أهل الحق : إرجاع المتشابه إلى المحكم .

وطريقة أهل الباطل :

١. ترك المحكم , واتباع المتشابه .

٢. عدم الرجوع إلى أهل العلم في فهم المتشابه .

وغالب المبتدعة والمخالفين يستدلون على باطلهم بالمتشابه .

وهذا الرد المجمل مفيدٌ جداً في المناقشات , ومن مزايا هذه الطريقة :

١. أنها تصلح للعوام وقليلي العلم , وأما الرد المفصل فلا يكون إلا من عالمٍ أو طالب علم .

٢. أنها عامة , فتنفع لجميع الشبه والجهالات ، وأما الرد المفصل فكل شبهة لها رد خاص .

---

(١) قال ابن تيمية : يجب أن يعرف أن أدلة الحق لا تتناقض ، فلا يجوز إذا أخبر الله بشيء – سواء كان الخبر إثباتاً أو نفياً – أن يكون في إخباره ما يناقض ذلك الخبر الأول ، ولا يكون فيما يعقل بدون الخبر ما يناقض ذلك الخبر المعقول ، فالأدلة المفضية للعلم لا يجوز أن تتناقض ، سواء كان الدليلان سمعيين , أو عقليين ، أو كان أحدهما سمعياً والآخر عقلياً ، ولكن التناقض قد يكون فيما يظنه بعض الناس دليلاً وليس بدليل .

وقال رحمه الله : أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح على باطله إلا وفي ذلك الدليل ما يدل على نقيض قوله .

وأما الجواب المفصل : فإن أعداء الله لهم اعتراضات كثيرة على دين الرسل يصدون بها الناس عنه .

منها قولهم : نحن لا نشرك بالله شيئاً ، بل نشهد أنه لا يخلق , ولا يرزق , ولا يحي , ولا يميت , ولا يدبر الأمر , ولا ينفع , ولا يضر إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً ﷺ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فضلاً عن عبد القادر وغيره ، ولكن أنا مذنب ، والصالحون لهم جاه عند الله ، وأطلب من الله بهم[1] .

فجاوبه بما تقدم ، وهو أن الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مقرُّون بما ذكرت لي أيها المبطل ، ومقرُّون أن أوثانهم لا تدبر شيئاً ، وإنما أرادوا ممن قصدوا الجاه والشفاعة ، واقرأ عليه ما ذكر الله في كتابه ووضحه .

بعد أن انتهى المصنف من الكلام عن الجواب المجمل ، شرع في الكلام عن الجواب المفصل الذي هو جواب كل شبهة بما يناسبها.

الشبهة الأولى :

وخلاصتها : أن الشرك إنما هو في اعتقاد الإيجاد , والتأثير , والتدبير لغير الله , وأما من أقر بتوحيد الربوبية , ولم يقصد من الصالحين إلا الشفاعة فليس بمشرك .

وعليه قالوا : إن صرف الدعاء , والذبح , والاستغاثة , وغيرها , لغير الله لا يكون شركاً إلا إذا اعتقد في المصروف له النفع والضر , أما إذا لم يعتقد فيه النفع والضر , وإنما تقرب له بذلك من أجل أن يشفع له عند الله , وأن ينفعه بجاهه عند الله فليس بشرك .

وخلاصة الجواب عنها : أن الكفار الذين قاتلهم النبي ﷺ كانوا يقرون بأن الله هو الخالق , الرازق , المحيي , المميت ، المدبر , ويعلمون أن أصنامهم لا تدبر شيئاً ، وإنما كان شركهم بسبب جعلهم الوسائط , والشفعاء لله ، كما قال الله تعالى عنهم ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ وقال عنهم ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ ﴾ .

وهذه الشبهة سبق الجواب عنها في المقدمة عند تحرير السبب الذي أباح دماء كفار قريش .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم : فحاصل جواب هذه الشبهة : أنك ما زدت على ما أقر به المشركون الأولون ، ولا زاد فعلك عن فعلهم ، بل أنت وهم سواء .

وفي رد الشيخ عبداللطيف بن عبد الرحمن بن حسن على داود بن جرجيس قال : ومن له أدنى نهمة في العلم , والتفات إلى ما جاءت به الرسل , يعرف أن المشركين من كل أمة في كل قرن ما قصدوا من معبوداتهم وآلهتهم التي عبدوها مع الله إلا التسبب , والتوسل , والتشفع , ليس إلا , ولم يدعوا الاستقلال والتصرف لأحد من دون الله , ولا قاله أحد منهم سوى فرعون , والذي حاج إبراهيم في ربه[2] .

---

(١) وفي نسخة : بجاههم .

(٢) الدرر السنية ج١٢ص١٩٣

ومن أمثلة من تبنى هذه الشبهة :

١. علوي أحمد الحداد , حيث يقول : هؤلاء مهما عظموا الأنبياء , والأولياء فإنهم لا يعتقدون فيهم ما يعتقدون في جانب الحق تبارك وتعالى من الخلق الحقيقي التام العام , وإنما يعتقدون الوجاهة لهم عند الله في أمر جزئي , وينسبونه لهم مجازاً , ويعتقدون أن الأصل والفعل لله سبحانه .

٢. أحمد زيني دحلان , حيث يقول : فالذي يوقع في الإشراك هو اعتقاد ألوهية غير الله سبحانه , أو اعتقاد التأثير لغير الله..... ولا يعتقد أحد من المسلمين ألوهية غير الله تعالى , ولا تأثير أحد سوى الله تعالى .

ويقصد بالألوهية هنا الربوبية , والقوم يجهلون التوحيد , والله المستعان .

٣. يوسف الدجوي , حيث يقول : لا أدري كيف يكفرون من يقول : إن الله خالق كل شيء ، وبيده ملكوت كل شيء , وإليه يرجع الأمر كله ، والمتوسل ناطق بهذا في توسله , فإن المتوسل إلى الله بأحد أصفيائه قائل إنه لا فاعل إلا الله ، ولم ينسب إلى من توسل به فعلاً , ولا خلقاً ، وإنما أثبت له القربة والمنزلة عند الله ... حتى إننا لو رأيناه أسند شيئاً لغير الله تعالى ، علمنا بمقتضى إيمانه أنه من الإسناد المجازي لا الحقيقي , كقولهم أنبت الربيع البقل .

ويقول أيضاً : إن كان يعتقد- أي المتوسل , والمستغيث بغير الله – أن المتصرف في الأمور هو الله , والطلب في الحقيقة ونفس الأمر منه ، وغيره لا يملك شيئاً من الضر والنفع , والوضع والرفع ، ولكن مع ذلك يتوجه الخطاب والطلب إلى الوجيه المقرب لدى الرب ... فالطلب في الحقيقة منه تعالى لا من سواه ، وإن كان في الظاهر متوجهاً إلى غيره , فلا بأس به في المعنى !

٤. جميل صدقي الزهاوي , حيث يقول : إن المشركين إنما كفروا بسبب اعتقادهم في الملائكة , والأنبياء , والأولياء أنهم آلهة مع الله يضرون وينفعون بذواتهم .

٥. يوسف النبهاني , حيث يقول : وأنت إذا نظرت إلى كل فرد من أفراد المسلمين , عامتهم , وخاصتهم ، لا تجد في نفس أحد منهم غير مجرد التقرب إلى الله لقضاء حاجاتهم الدنيوية والأخروية بالاستغاثات , مع علمهم بأن الله هو الفعال المطلق , المستحق للتعظيم بالأصالة وحده لا شريك له .

وهذه الشبهة من أعظم الشبه التي صدت أولئك عن توحيد الله , وأوقعتهم في الشرك , والجواب عنها من أظهر ما يكون , إذ مجرد إثبات أن الدعاء , والنذر , والاستغاثة , والذبح , ونحو ذلك عبادات يكفي في كون من صرفها لغير الله قد أشرك مع الله غيره .

فإن قال: إن هؤلاء الآيات نزلت فيمن يعبد الأصنام ، كيف تجعلون الصالحين مثل الأصنام ؟ أم كيف تجعلون الأنبياء أصناماً ؟

فجاوبه بما تقدم ، فإنه إذا أقر أن الكفار يشهدون بالربوبية كلها لله ، وأنهم ما أرادوا مما قصدوا إلا الشفاعة . ولكن إذا أراد أن يفرق بين فعلهم وفعله بما ذكر , فاذكر له أن الكفار منهم من يدعو الأصنام ، ومنهم من يدعو الأولياء ، الذين قال الله فيهم ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ الآية . ويدعون عيسى بن مريم وأمه ، وقد قال الله تعالى ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ الآية .

واذكر له قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قالوا سبحانك ﴾ الآية .

وقوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى بنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ الآية .

فقل له : أعرفت أن الله كفر من قصد الأصنام ، وكفر أيضاً من قصد الصالحين ، وقاتلهم رسول الله ﷺ .

الشبهة الثانية :

وخلاصتها : أن الكفار الأوائل طلبوا الشفاعة من أصنام (أحجار وأشجار) وأما هم فطلبوها من صالحين لهم جاه ومكانة عند الله .

وعليه فالآيات التي يحتج بها الموحدون في تحرير شرك المشركين ، كقوله تعالى عن المشركين ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ وقوله تعالى عنهم ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ ﴾ إنما نزلت فيمن يعبد الأصنام ، ونحن لا نعبد الأصنام ، وإنما نتوجه إلى صالحين لهم جاه ومكانة عند الله .

وخلاصة الجواب عنها من وجهين :

١. نقول : الفعل واحد ، وهو صرف عبادة لغير الله ، وقصدُ غير الله ، وسبق أن الإله هو المقصود المعتمد عليه , سواء كان صنماً ، أو نبياً ، أو صالحاً .

٢. المشركون لم يكونوا كلهم يعبدون الأصنام ، أو ليس كلهم اقتصر على عبادة الأصنام وسؤالهم ، بل منهم من عبد الصالحين ، والأنبياء ، والملائكة , والقرآن لم يفرق بينهم في الحكم , وأنت فرقت بينهم في الحكم .

وقد أخبرنا الله في كتابه أن من المشركين من عبد الملائكة ، كما في قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاء إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قالوا سبحانك ﴾ الآية .

ومنهم من عبد عيسى بن مريم ، كما في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ ﴾ الآية .

ومنهم من عبد الصالحين والأولياء ،كما في قوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ (١).

وهؤلاء صالحون وليسوا أصناماً ، وسبق أنهم لم يكونوا يعتقدون فيهم الربوبية ، وإنما كانت عبادتهم لهم في جعلهم وسائط وشفعاء ، وهذا الفعل كفعلكم تماماً ، وعندها يخنس الباطل .

تنبيه : هذه الشبهة لها علاقة بالتي قبلها ، فلما كان اعتقادهم أن الإنسان لا يكفر بصرف العبادة لغير الله إلا إذا صرف معاني الربوبية فيه ، رد عليهم المصنف بأن هذا الذي زعمتم هو عينه فعل المشركين , واستدل لذلك بقوله تعالى ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ ﴾ .

قالوا : هذا قياس مع الفارق , لأن هذه الآيات نزلت في المشركين , ونحن مسلمون ، وأيضاً هذه الآيات نزلت فيمن يعبد أصناماً لا تنفع ولا تضر ، فكيف تقيسون الصالحين والأنبياء على الأصنام ؟

قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن : وهل وقعت الخصومة ، وجرد السيف ، ودعي من دعي من أهل الكتاب إلى المباهلة ، وأمر بقتالهم حتى يسلموا ، أو يعطوا الجزية إلا لأجل الأنبياء والصالحين ودعائهم ، وهل صورت الأصنام وعبدت إلا باعتبار من هي على صورته وتمثاله من الأنبياء , والملائكة , والصالحين ...

وقال ابن تيمية : كل من عبد غير الله فإنما يعبد الشيطان ، وإن كان يظن أنه يعبد الملائكة , أو الأنبياء .

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : فمن عبد الله ليلاً ونهاراً ثم دعا نبياً , أو ولياً عند قبره فقد اتخذ إلهين اثنين .

وقال رحمه الله عن هذه الشبهة : فهذا ترس أعده الجهال الضّلال لرد كلام الله ، إذا قال لهم أحد : قال الله كذا ، قالوا : نزلت في اليهود ، نزلت في النصارى ، نزلت في فلان .... وجواب هذه الشبهة الفاسدة أن يقال : معلوم أن القرآن نزل بأسباب ، فإن كان لا يستدل به إلا في تلك الأسباب بطل استدلاله ، وهذا خروج من الدين ، وما زال العلماء من عصر الصحابة فمن بعدهم يستدلون بالآيات التي نزلت في اليهود وغيرهم على من يعمل بها أ.هـ

---

(١) وقد اختلف المفسرون في المراد بقوله تعالى (أولئك الذين يدعون) فقيل : الملائكة , وقيل : عيسى , وقيل : العزير , وقيل : الجن .

وقد رجح ابن جرير قول ابن مسعود في البخاري أنهم الجن , ورد بعض هذه الأقوال , وقال : وأولى الأقوال بتأويل هذه الآية قول عبد الله بن مسعود الذي رويناه عن أبي معمر عنه ، وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر عن الذين يدعوهم المشركون آلهة أنهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة في عهد النبي ﷺ ومعلوم أن عُزيراً لم يكن موجوداً على عهد نبينا عليه الصلاة والسلام فيبتغي إلى ربه الوسيلة , وأن عيسى قد كان رُفع ، وإنما يبتغي إلى ربه الوسيلة من كان موجوداً حياً يعمل بطاعة الله ، ويتقرب إليه بالصالح من الأعمال , فأما من كان لا سبيل له إلى العمل ، فهم يبتغي إلى ربه الوسيلة , فإذ كان لا معنى لهذا القول ، فلا قول في ذلك إلا قول من قال ما اخترنا فيه من التأويل ، أو قول من قال : هم الملائكة ، وهما قولان يحتملهما ظاهر التنزيل .

وأما ابن تيمية فيرى أن الآية شاملة لكل صالح , فقال : والآية تتناول كل من دعا غير الله وذلك المدعو يبتغى إلى الله الوسيلة , أي القربى والزلفى , ويرجو رحمة الله , ويخاف عذابه , وهذا يدخل فيه الملائكة , والأنبياء , والصالحون الإنس والجن , وقد قرأ طائفة (أولئك الذين تدعون) فبين أن الذين يدعونهم هم يتقربون إلى الله , ويرجونه , ويخافونه , فكيف يجوز دعاؤهم , وهذا كقوله (أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء) .

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم : فإنها نزلت في أناس يعبدون الجن فأسلم الجن وبقي الإنس على عبادتهم . وقيل : نزلت فيمن يعبد عزيراً , والمسيح , كما في قول أكثر المفسرين , ولا منافاة بين القولين فإنها نزلت فيمن يدعو مدعواً , وذلك المدعو صالح في نفسه , يرجو رحمة الرب , ويخاف عقابه ، فكأن الله سبحانه قال في الرد عليهم : إن من تدعونهم عبيدي كما أنكم عبيدي ، يرجون رحمتي , ويخافون عذابي ، فينبغي أن تفعلوا مثلما تفعل تلك الآلهة .

فإن قال: الكفار يريدون منهم ، وأنا أشهد أن الله هو النافع , الضار , المدبر ، لا أريد إلا منه ، والصالحون ليس لهم من الأمر شيء ، ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم .

فالجواب : أن هذا قول الكفار سواء بسواء ، فاقرأ عليه قوله تعالى ﴿ أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ وقوله تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ﴾.

الشبهة الثالثة :

وخلاصتها : أن المشركين طلبوا مِن مَن توجهوا إليهم , وأما نحن فلم نطلب منهم , وإنما جعلناهم واسطة فقط .

وهذه الشبهة قريبة جداً من الشبهة الأولى , وهي أنهم يعتقدون أن الشرك هو في التوجه إلى الصالحين مع اعتقاد أنهم ينفعون ويضرون , وأما إن توجهوا إليهم مع اعتقادهم أن الله هو النافع الضار وحده , وإنما أرادوا منهم أن يشفعوا لهم عند الله فقط , لما لهم من الجاه والمكانة , فليس هذا بشرك , فالحقيقة أنهم يريدون من الله بهم , كما يزعمون .

وخلاصة الجواب عليها : أن هذا هو عينه فعل المشركين ، فإنهم لم يكونوا يعتقدون في آلهتهم , وصالحيهم , وما توجهوا إليه قدرتهم على النفع والضر استقلالاً ، وإنما أرادوا منهم ما أردت أنت ، وهو أن يكونوا لهم وسطاء , وشفعاء عند الله ، كما قال تعالى عنهم ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ وقال عنهم ﴿ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ ﴾ .

وسبب هذه الشبهة أنهم لما ظنوا أولاً أن شرك الأولين هو اعتقاد الربوبية لغير الله – أي اعتقاد النفع والضر لغير الله – ظنوا ثانياً أنهم إنما كانوا يعبدون غير الله لأجل النفع والضر .

ويقال أيضاً : يوجد اليوم وقبل اليوم من يدعو هؤلاء دعوة مباشرة , ويعتقد فيهم القدرة على تصريف الأمور .

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن : ولا ريب أن اتخاذ الشفعاء والتوجه إليهم بالقلب واللسان ينافي إسلام القلب والوجه لله وحده .

وقال الشيخ عبد العزيز آل عبد اللطيف : كما أن قول المشرك : ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم . يناقض دعواه أنه لا يريد إلا من الله تعالى , فمن قصد غير الله تعالى فهو معرض عن الله تعالى وعبادته ورجائه .

واعلم أن هذه الشبه الثلاث هي أكبر ما عندهم .

فإذا عرفت أن الله وضحها لنا في كتابه ، وفهمتها فهماً جيداً ، فما بعدها أيسر منها .

بعد أن ذكر المصنف هذه الشبه الثلاث والرد عليها , وبين ضعفها ، ذكر أنها أعظم ما عندهم استدلالاً , وانتشاراً ، فإذا كان الرد عليها ظاهر في كتاب الله لمن تجرد للحق ، فغيرها أولى ، ليبين لك ما سبق ذكره في المقدمة من قوله تعالى ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ .

ويبين فائدة التحصن بالعلم الشرعي ، الذي يظهر شبه القوم مهما عظمت كبيت العنكبوت .

وهذه الشبه الثلاث قريبة من بعض , ومترتبة على بعض , وأصلها واحد , وهو الخلل في معرفة شرك كفار قريش .

فخلاصة الأولى : أن الشرك محصور في اعتقاد التأثير . فلما بُين لهم أن شرك كفار قريش في الشفاعة , قالوا : أولئك طلبوا الشفاعة من أصنام , ونحن نطلبها من صالحين , وهذه الشبهة الثانية , فلما بُين لهم أن مِن المشركين من طلب الشفاعة من صالحين , كالملائكة , والأنبياء , قالوا : أولئك طلبوا منهم مباشرة , أما نحن فنجعلهم واسطة بيننا وبين الله , وهي الشبهة الثالثة .

ويلاحظ أنهم يدفعون عن أنفسهم الشرك والمشابهة لكفار العرب الذين نزل فيهم القرآن , وقاتلهم النبي ﷺ .

ورحم الله ابن القيم حين قال في نونيته :

والعلم يدخل قلب كل موفق من غير بواب ولا استئذان

ويرده المحروم من خذلانه لا تشقنا اللهم بالحرمان

فإن قال : أنا لا أعبد إلا الله ، وهذا الالتجاء إليهم , ودعاؤهم ليس بعبادة .

فقل له : أنت تقر أن الله فرض عليك إخلاص العبادة , وهو حقه عليك .

فإذا قال : نعم .

فقل له : بين لي هذا الذي فرضه الله عليك , وهو إخلاص العبادة , وهو حقه عليك .

فإنه لا يعرف العبادة , ولا أنواعها , فبينها له بقولك : قال الله تعالى ﴿ ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ الآية.

فإذا أعلمته بهذا فقل له : هل هو عبادة لله تعالى ؟

فلا بد أن يقول : نعم ، والدعاء من العبادة .

فقل له : إذا أقررت أنها عبادة ، ودعوتَ الله ليلاً ونهاراً ، خوفاً وطمعاً ، ثم دعوتَ في تلك الحاجة نبياً , أو غيره ، هل أشركتَ في عبادة الله غيره ؟

فلا بد أن يقول : نعم .

فقل له : قال الله تعالى ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ فإذا أطعت الله ونحرت له هل هذه عبادة ؟

فلا بد أن يقول : نعم .

فقل له : إذا نحرت لمخلوق : نبي , أو جني , أو غيرهما هل أشركت في هذه العبادة غير الله ؟

فلا بد أن يقول : نعم .

وقل له أيضاً : المشركون الذين نزل فيهم القرآن هل كانوا يعبدون الملائكة , والصالحين , واللات , وغير ذلك ؟

فلا بد أن يقول : نعم .

فقل له : وهل كانت عبادتهم إياهم إلا في الدعاء , والذبح , والالتجاء , ونحو ذلك ؟

وإلا فهم مقرون أنهم عبيده ، وتحت قهر الله ، وأن الله هو الذي يدبر الأمر ، ولكن دعوهم ، والتجؤوا إليهم للجاه , والشفاعة ، وهذا ظاهر جداً .

الشبهة الرابعة :

وخلاصتها : أن الالتجاء إلى الصالحين , ودعاءهم , والذبح لهم ليس عبادة لهم[١] .

وخلاصة الجواب عليها : التدرج معه في عدة أمور :

١. تقريره أن العبادة محض حق الله , فلا يجوز صرفها لغيره , وهذا أمر لا ينكره , قال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) .

٢. سؤاله عن معنى العبادة وضابطها .

والغالب على من يقصد القبور أنه لا يعرف معنى العبادة .

وعندها نبين له معنى العبادة , وهي إخلاص الدين لله .

٣. تقريره أن الدعاء , والذبح , والحلف.....عبادات , وإذا ثبت ذلك كان صرفها لغير الله شركاً .

وتقريره بذلك يكون بطريقين :

أ. نقول له : قال تعالى ﴿ ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ وهذا أمر من الله أن نتعبد له بالدعاء .

إذن الدعاء عبادة , فصرفه لغير الله شرك .

ونقول له : هل أنت تدعو الله في حاجاتك ؟

فلا بد أن يقول : نعم .

فنقول له : إذن أنت تتعبد الله بهذا الدعاء .

فسيقول : نعم .

فنقول له : إذن الدعاء عبادة .

فسيقول : نعم .

فنقول له : إذن لا يجوز صرفه لغير الله .

وعندها يُخصَم .

وكذلك يقال له في النحر , قال تعالى ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ أمر من الله أن نتعبد ونتقرب له بالنحر .

إذن النحر عبادة , فصرفه لغير الله شرك .

وكذا يقال له في سائر ما أمر الله به من العبادات .

ب. نقول له : هل كان المشركون يعبدون الملائكة , والجن , والصالحين ؟

فسيقول : نعم , لا يستطيع الإنكار , وإلا ذكرنا له الآيات الدالة على ذلك .

فنبين له أن عبادتهم لهم إنما كانت بدعائهم ، والذبح لهم ، والاستغاثة بهم , ونحو ذلك , لم يكونوا يعتقدون فيهم الخلق , والرزق , والتدبير , كما سبق بيانه , ولم يكونوا يصلون لهم , ويصومون لهم , ويحجون لهم .

---

(١) وهذا نتيجة الجهل بمعنى وحقيقة العبادة .

وبيان ذلك : أن هؤلاء الذين يدَّعون الإسلام يعلمون أن العبادة حق خالص لله تعالى ، وأن صرف نوع من أنواع العبادة لغير الله شرك , لكنهم يخطئون في تطبيق هذه القاعدة ، فيصرفون العبادات لغير الله , ويجعلون ذلك من القربات , وكل هذا بسبب جهلهم بالتوحيد الذي جاءت به الرسل .

وهناك شبهة أخرى متعلقة بهذه الشبهة يلبس بها أعداء الدين على الجهال , لم يذكرها المصنف هنا , وهي قولهم : هناك فرق بين الدعاء , والنداء , فدعاء أهل القبور شرك , وأما النداء فجائز .

وقد تبنى هذا التلاعب داود بن جرجيس , ورد عليه العلماء بردود , منها :

قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ قال العلماء : وما فعلوه , وهو الدعاء , هو عين ما أُمروا به , وهو النداء .

وقال تعالى ﴿ وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِن قَبْلُ ﴾ وهذا النداء هو المراد بقوله تعالى ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾ .

وقال تعالى ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ مع قوله تعالى ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ .

وقال تعالى ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ مع قوله ﷺ : دعوة أخي ذي النون ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه .

قال الشيخ أبو بطين : ومن العجب قول بعض من ينسب إلى علم , ودين ، أن طلبهم من المقبورين , والغائبين ليس دعاء لهم , بل هو نداء . أفلا يستحي هذا القائل من الله إذا لم يستح من الناس من هذه الدعوى الفاسدة السمجة التي يروج بها على رعاع الناس .... وما أسمج هذا القول وأقبحه... وهو قول يستحي من حكايته لولا أنه يروج على الجهال .

فإن قال : أتنكر شفاعة رسول الله ﷺ وتبرأ منها ؟

فقل: لا أنكرها ، ولا أتبرأ منها ، بل هو ﷺ الشافع المشفع ، وأرجو شفاعته ، ولكن الشفاعة كلها لله ، كما قال تعالى ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً ﴾ .

ولا تكون إلا بعد إذن الله ، كما قال تعالى ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ ولا يشفع في أحد إلا بعد أن يأذن الله فيه ، كما قال تعالى ﴿ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ وهو لا يرضى إلا التوحيد , كما قال تعالى ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ .

فإذا كانت الشفاعة كلها لله ، ولا تكون إلا بعد إذنه ، ولا يشفع النبي ﷺ ولا غيره في أحد حتى يأذن الله فيه ، ولا يأذن إلا لأهل التوحيد , تبين أن الشفاعة كلها لله ، وأنا أطلبها منه فأقول : اللهم لا تحرمني شفاعته ، اللهم شفعه فيّ ، وأمثال هذا .

فإن قال : النبي ﷺ أعطي الشفاعة ، وأنا أطلبه مما أعطاه الله .

فالجواب : أن الله أعطاه الشفاعة ونهاك عن هذا ، وقال تعالى ﴿ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾ وطلبك من الله شفاعة نبيه عبادة ، والله نهاك أن تشرك في هذه العبادة أحداً ، فإذا كنت تدعو الله[1] أن يشفعه فيك فأطعه في قوله ﴿ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾ .

وأيضاً فإن الشفاعة أُعطيها غير النبي ﷺ فصح أن الملائكة يشفعون ، والأفراط يشفعون ، والأولياء يشفعون. أتقول : إن الله أعطاهم الشفاعة ، فأطلبها منهم ؟!

فإن قلت هذا رجعت إلى عبادة الصالحين التي ذكرها الله في كتابه .

وإن قلت (لا) بطل قولك : أعطاه الله الشفاعة ، وأنا أطلبه مما أعطاه الله .

---

(١) قال الشيخ محمد بن إبراهيم : الظاهر أن مراده ترجو الله .

الشبهة الخامسة :

وخلاصتها : جواز طلب الشفاعة من النبي ﷺ لأن الله أعطاه الشفاعة , وأنا أطلبه ما يملك .

وخلاصة الجواب عليها من عدة أوجه :

١. أن الشفاعة دعاء ، والدعاء عبادة ، من صرفه لغير الله فقد أشرك .

٢. لا شك أن الله أعطى النبي ﷺ الشفاعة , وأنه ﷺ أعظم شافع , ولكن هذا العطاء من الله ليس عطاءً مطلقاً ، بحيث يتصرف فيها كيف يشاء ، بل لا تكون إلا بعد إذن الله له أن يشفع , ولا تقبل إلا فيمن رضي الله عنه .

فعطاء الشفاعة معناه : الإذن له أن يشفع فيمن أُذن له فيه .

قال ابن تيمية : فلا يأذن في شفاعة مطلقة لأحد ، بل إنما يأذن في أن يشفعوا لمن أذن لهم في الشفاعة فيه ، فلا يأذن لهم إذناً مطلقاً .

وعلى هذا فالشفاعة ملك لله , والمنبغي طلبها من الله , فيقول المسلم : اللهم شفع فيَّ نبيك ﷺ , اللهم لا تحرمني شفاعة نبيك ﷺ , ونحو ذلك مما يكون الطلب من الله مالك الشفاعة , ولا يجوز للمسلم أن يقول : يا رسول الله اشفع لي .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : يزعمون أننا ننكر شفاعة الرسول ﷺ ، فنقول : سبحانك هذا بهتان عظيم ، بل نشهد أن رسول الله ﷺ الشافع المشفع ، صاحب المقام المحمود ، نسأل الله رب العرش العظيم أن يشفعه فينا ، وأن يحشرنا تحت لوائه .

٣. أن الله أعطى النبي ﷺ الشفاعة ، ونهاك عن طلبها منه ، فكما أطعته في تصديق خبره ، فأطعه في نهيه لك , قال تعالى (وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً) .

٤. أن الله أعطى الشفاعة غير النبي ﷺ ، مثل : الملائكة ، وصالح المؤمنين ، قال ﷺ : شفعت الملائكة ، وشفع النبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين . رواه مسلم

ومثل الأفراط ، قال ﷺ : لا يموت لمسلمٍ ثلاثةٌ من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم . رواه البخاري

فنقول له : هل تطلبها من هؤلاء ؟

فلن يخرج عن جوابين :

أ. أن يقول : نعم . فنقول له : هذه هي عبادة غير الله , وهذا هو فعل المشركين الذين بُعث فيهم النبي ﷺ حيث طلبوا الشفاعة من الملائكة .

ب. أن يقول : لا . فنقول له : بطلت حجتك (النبي ﷺ أعطي الشفاعة ، وأنا أطلبه مما أعطاه الله) .

لماذا تفرق بين النبي ﷺ وبين غيره في الطلب ؟!

وعندها يُخصَم .

فعُلم أن إعطاء الشفاعة لأحد لا يلزم جواز طلبها منه .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : القائل إنه يطلب الشفاعة بعد موته ، يورد علينا الدليل من كتاب الله ، أو من سنة رسول الله ﷺ ، أو من اجتماع الأمة ، والحق أحق أن يتبع .

وسبق في شرح كتاب التوحيد الكلام عن الشفاعة , وذكر مسائلها .

فإن قال : أنا لا أشرك بالله شيئاً – حاشا وكلا – ولكن الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك .

فقل له : إذا كنت تقر أن الله حرم الشرك أعظم من تحريم الزنا ، وتقر أن الله لا يغفره ، فما هذا الأمر الذي عظَّمه الله , وذكر أنه لا يغفره ؟! فإنه لا يدري .

فقل له : كيف تبرئ نفسك من الشرك , وأنت لا تعرفه ؟!

كيف يحرم الله عليك هذا ، ويذكر أنه لا يغفره , ولا تسأل عنه , ولا تعرفه ؟!

أتظن أن الله عز وجل يحرمه ولا يبينه لنا ؟!

فإن قال : الشرك عبادة الأصنام , ونحن لا نعبد الأصنام .

فقل له : ما معنى عبادة الأصنام ؟

أتظن أنهم يعتقدون أن تلك الأحجار , والأخشاب تخلق , وترزق , وتدبر أمر من دعاها ؟

فهذا يكذبه القرآن .

فإن قال : إنهم يقصدون خشبة ، أو حجراً ، أو بَنِيَّةً على قبر أو غيره يدعون ذلك ، ويذبحون له ، يقولون : إنه يقربنا إلى الله زلفى ، ويدفع عنا الله ببركته ، ويعطينا ببركته .

فقل : صدقت ، وهذا هو فعلكم عند الأحجار ، والبناء الذي على القبور , وغيرها .

فهذا أقر أن فعلهم هذا هو عبادة الأصنام , وهو المطلوب .

ويقال له أيضاً : قولك (الشرك عبادة الأصنام) هل مرادك أن الشرك مخصوص بهذا ، وأن الاعتماد على الصالحين , ودعاءهم لا يدخل في ذلك ؟

فهذا يرده ما ذكر الله تعالى في كتابه من كفر من تعلق على الملائكة ، أو عيسى , أو الصالحين .

فلا بد أن يقر لك أن من أشرك في عبادة الله أحداً من الصالحين فهو الشرك المذكور في القرآن ، وهذا هو المطلوب .

وسر المسألة أنه إذا قال : أنا لا أشرك بالله .

فقل له : وما الشرك بالله ؟ فسره لي .

فإن قال : هو عبادة الأصنام .

فقل له : وما عبادة الأصنام ؟ فسرها لي .

وإن قال : أنا لا أعبد إلا الله .

فقل له : ما معنى عبادة الله ؟ فسرها لي .

فإن فسرها بما بينته فهو المطلوب .

وإن لم يعرفه فكيف يدعي شيئاً وهو لا يعرفه ؟

وإن فسره بغير معناه , بينتَ له الآيات الواضحات في معنى الشرك بالله وعبادة الأوثان أنه الذي يفعلون في هذا الزمان بعينه , وأن عبادة الله وحده لا شريك له هي التي ينكرون علينا , ويصيحون منه , كما صاح إخوانهم حيث قالوا ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ .

الشبهة السادسة :

وخلاصتها : أن الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك .

وهذه الشبهة والجواب عليها ، مثل الشبهة الرابعة والجواب عليها ، إلا أن تلك في العبادة ، وهذه في الشرك ، والمؤدى واحد , ولو جاء بها المصنف بعدها لكان أنسب(١) .

وخلاصة الجواب عليها : التدرج معه في عدة أمور :

١. تقريره أن الشرك محرم , ومانع من دخول الجنة , وهذا أمر لا ينكره .

٢. سؤاله عن معنى الشرك , وضابطه .

والغالب على من يقصد القبور أنه لا يعرف حقيقة الشرك الذي هو أعظم الذنوب .

وعندها نبين له معنى الشرك , ونغلظ عليه بسبب جهله بأهم ما يجب عليه , ونقول له : كيف تبرئ نفسك من شيء لا تعرفه ؟!

فإن قال : الشرك هو عبادة الأصنام . فنجيبه بجوابين :

أ. نقول له : إن كنت تظن أن عبادة الأصنام هو باعتقاد أنها تخلق , وترزق , وتنفع , وتضر , فهذا باطل , لأن الله أخبر عن المشركين الذين يعبدون الأصنام أنهم يعتقدون ذلك لله وحده , وإن كنت تظن أن عبادتهم لها هو بصرف الدعاء , والطواف , والذبح , وغير ذلك لها , فهذا هو فعلكم عند قبور الأولياء .

ب. نقول له : قولك (الشرك عبادة الأصنام) هل تقصد أنه مخصوص بهذا , وأن عبادة غير الأصنام ليست شركاً ؟

فهذا باطل , لأن الله تعالى أخبر عن المشركين أن منهم من يعبد الملائكة ، ومنهم من يعبد الأنبياء , ومنهم من يعبد الصالحين .

فيعلم بذلك أن الشرك لا يختص بعبادة الأصنام , بل هو عبادة غير الله أياً كان الذي يعبده , حتى لو لم يعتقد فيه الربوبية ، قال تعالى ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾ فقوله ﴿ أَحَداً ﴾ نكرة في سياق النهي فتفيد العموم .

---

(١) ولذا لما لخص هذه الشبهة بقوله (وسر المسألة ...) لخص معها الشبهة الرابعة .

فإن قال : إنهم لم يكفروا بدعاء الملائكة , والأنبياء , وإنما كفروا لما قالوا : الملائكة بنات الله .

ونحن لم نقل : إن عبد القادر ولا غيره ابن الله .

فالجواب : أن نسبة الولد إلى الله تعالى كفر مستقل , قال تعالى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ .

والأحد : الذي لا نظير له . والصمد : المقصود في الحوائج .

فمن جحد هذا فقد كفر , ولو لم يجحد آخر السورة .

ثم قال تعالى ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ فمن جحد هذا فقد كفر , ولو لم يجحد أول السورة .

وقال الله تعالى ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ ﴾ الآية . ففرق بين النوعين ، وجعل كلاً منهما كفراً مستقلاً .

وقال الله تعالى ﴿ وَجَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء الْجِنّ ﴾ الآية . ففرق بين الكفرين .

والدليل على هذا أيضاً : أن الذين كفروا بدعاء اللات – مع كونه رجلاً صالحاً – لم يجعلوه ابن الله , والذين كفروا بعبادة الجن لم يجعلوهم كذلك .

وكذلك العلماء أيضاً في جميع المذاهب الأربعة يذكرون في باب (حكم المرتد) أن المسلم إذا زعم أن لله ولداً فهو مرتد , وإن أشرك بالله فهو مرتد , فيفرقون بين النوعين , وهذا في غاية الوضوح .

الشبهة السابعة :

وخلاصتها : أن سبب كفر الكفار اعتقادهم أن الملائكة بنات الله , وليس دعاء الملائكة والصالحين .

كما قال القباني : العلة التي أوجبت كفر المشركين هي اعتقادهم في الأنبياء , والأولياء , والملائكة أنهم أبناء الله , وبنات الله , تعالى الله عن ذلك أ.هـ

وخلاصة الجواب على هذه الشبهة ، من وجوه ، وهي :

١. أن نسبة الولد إلى الله كفر مستقل ، والالتجاء إلى الصالحين ودعائهم كفر مستقل .

وقد فرق الله تعالى بين الكفرين في عدة آيات , منها قوله تعالى (قل هو الله أحد * الله الصمد) فالله وحده من يصمد إليه , ومن قصد غيره فقد كفر , ثم قال تعالى (لم يلد ولم يولد) فمن زعم أن لله ولداً فقد كفر .

وقال تعالى ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ وقال تعالى ﴿ وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ فكل واحد كفر مستقل .

٢. أن الذين كفروا بدعاء اللات لم يجعلوه ابناً لله , والذين كفروا بدعاء الجن لم يجعلوهم أبناء لله ، وإنما كفروا بصرف الدعاء , ونحوه لهم .

٣. أجمع العلماء في جميع المذاهب أن الكفر لا يقتصر على نوع واحد ، ولذا ذكروا في كتبهم عدة أمور يكفر بها الإنسان ، وأجمعوا أن من زعم أن لله ولداً فهو مرتد , وأن من أشرك بالله فهو مرتد ، ففرقوا بين النوعين ، وجعلوا كلاً منهما كفراً .

وإن قال : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

فقل : هذا هو الحق , ولكن لا يُعبدون .

ونحن لا ننكر إلا عبادتهم مع الله , وإشراكهم معه , وإلا فالواجب عليك حبهم , واتباعهم , والإقرار بكرامتهم .

ولا يجحد كرامات الأولياء إلا أهل البدع والضلالات .

ودين الله وسط بين طرفين , وهدى بين ضلالتين , وحق بين باطلين .

الشبهة الثامنة :

وخلاصتها : جواز دعاء الأولياء والصالحين , لما لهم من المكانة والمنزلة عند الله تعالى , كما بين الله ذلك في كتابه .

وخلاصة الجواب عليها : أن الدعاء عبادة , متى صرفت لغير الله كان ذلك شركاً أكبر , مهما كان المصروف له , قال تعالى ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً ﴾ فقوله ﴿ أَحَداً ﴾ نكرة في سياق النهي فتفيد العموم .

وبيان ذلك : أنهم يستدلون بالآيات التي فيها رفع شأن الأولياء , وعلو منزلتهم , وما أوتوا من كرامات , ويجعلون ذلك دليلاً على جواز دعائهم , والاستغاثة بهم .

والجواب أن نقول : ما استدللتم به حق وصواب , لكن استدلالكم به في غاية الفساد , ونحن نحب الأولياء , ونعتبر حبهم قربة إلى الله , ونؤمن بكراماتهم , خلافاً لأهل البدع من المعتزلة , وغيرهم الذين ينكرون كرامات الأولياء , ويقولون : لا تخرق العادة إلا لنبي .

لكن هذا شيء , وما تفعلون من عبادتهم شيء آخر .

قال السعدي : والناس في معاملة الصالحين ثلاثة أقسام :

١. أهل الجفاء الذين يهضمونهم حقوقهم , ولا يقومون بحقهم من الحب , والموالاة لهم , والتوقير , والتبجيل .

٢. أهل الغلو الذين يرفعونهم فوق منزلتهم التي أنزلهم الله بها .

٣. أهل الحق الذين يحبونهم , ويوالونهم , ويقومون بحقوقهم الحقيقية , ولكنهم يبرؤون من الغلو فيهم , وادعاء عصمتهم .

فإذا عرفت أن هذا الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد) هو الشرك الذي أُنزل فيه القرآن , وقاتل رسولُ الله ﷺ الناسَ عليه , فاعلم أن شرك الأولين أخف من شرك أهل وقتنا بأمرين :

أحدهما : أن الأولين لا يشركون , ولا يدعون الملائكة , أو الأولياء , أو الأوثان مع الله إلا في الرخاء , وأما في الشدة فيخلصون الدين لله , كما قال تعالى ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ وقال تعالى ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ , بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ .

وقال تعالى ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ الآية .

فمن فهم هذه المسالة التي وضحها الله في كتابه , وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ يدعون الله , ويدعون غيره في الرخاء , وأما في الشدة فلا يدعون إلا الله وحده , وينسون ساداتهم .

تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا وشرك الأولين .

ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهماً راسخاً , والله المستعان .

والأمر الثاني : أن الأولين يدعون مع الله أناساً مقربين عند الله , إما نبياً , وإما ولياً , وإما ملائكة , أو يدعون أحجاراً , وأشجاراً مطيعة لله تعالى , ليست بعاصية .

وأهل زماننا يدعون مع الله أناساً من أفسق الناس , والذين يدعونهم هم الذين يحكون عنهم الفجور من الزنا , والسرقة , وترك الصلاة , وغير ذلك .

والذي يعتقد في الصالح , والذي لا يعصي – مثل الخشب , والحجر – أهون ممن يعتقد فيمن يشاهد فسقه , وفساده , ويُشهَدُ به .

خلاصة هذا المقطع : بيان أن شرك المتأخرين أعظم من شرك الأولين بأمرين .

بعد أن بين المصنف بالأدلة الواضحة ضلال هؤلاء المشركين الذين يدَّعون التوحيد , وبين أن فعلهم هو عينه فعل كفار قريش الذين قاتلهم النبي ﷺ استطرد وأراد أن يزيد على ذلك , ويبين أن هؤلاء المشركين المتأخرين أعظم شركاً من الذين قاتلهم النبي ﷺ بأمرين , وخلاصتهما :

١. أن المشركين الأولين يلجئون إلى غير الله في الرخاء دون الشدة , وأما المتأخرين فيلجئون إلى غير الله في الرخاء والشدة .

وذكر بعض أهل العلم أن السبب في كون المشركين الأولين يلجئون إلى الصالحين في الرخاء دون الشدة هو اعتقادهم أن الصالحين ليست لهم القدرة على الإنقاذ , بل هم مجرد واسطة , وأن وقت الشدة وقت حرج وضيق لا يمكن فيه الالتجاء إلى الوسائط , فيلجئون مباشرة إلى الله , لأنه هو القادر على إنقاذهم , وأما المشركون المتأخرون فيلجئون إلى الصالحين في الرخاء والشدة , وذلك لاعتقادهم أن الصالحين لهم القدرة على الإنقاذ , وليسوا مجرد واسطة ، وهذا أمر ثالث – لم يذكره المصنف – في سبقهم الأولين في الشرك[١] .

٢. أن المشركين الأولين يلجئون إلى المقربين عند الله أصحاب الأعمال الصالحة , أو الأشجار , والأحجار التي هي طائعة لله , وأما المتأخرين فيلجئون إلى المقربين , وإلى أصحاب الفسق والفجور أيضاً[٢] .

وسبق الكلام عن هذه المسألة , وتوضيح كلام الشيخ في شرح القواعد الأربع .

---

(١) ومن أمثلة ذلك ما ذكره صاحب كتاب (مناقب الجيلاني) راوياً عن الرفاعي أنه قال : توفي أحد خدام الغوث الأعظم ، وجاءت زوجته إلى الغوث فتضرعت , والتجأت إليه , وطلبت حياة زوجها ، فتوجه الغوث إلى المراقبة ثم أتى بروح ذلك الزوج , بسطوته على ملك الموت .

وقول بعضهم منادياً وليه : يا خالق الولد الذي تخلقه مطهور .

وقول بعضهم : والله أما الولي فلان فإنه يحيي الموتى ، وأما الولي فلان فإنه حي لا يموت .

ومن ذلك ما ذكر الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن قال : وقد حدثني الشيخ خليل الرشيدي بجامع الأزهر أن بعض أعيان المدرسين هناك قال : لا يدق وتد في القاهرة إلا بإذن السيد أحمد البدوي .

قال : فقلت له : هذا لا يكون إلا لله , فقال : حبي في سيدي أحمد البدوي اقتضى هذا .

وذكر بعضهم أن حياً من أهل البوادي إذا أرسلوا أنعامهم للمرعى قالوا : في حفظك يا فلان . يعنون ساكن مشهدهم .

(٢) قال الشيخ محمد بن إبراهيم : بل منهم من يدعو أناساً من أكفر الناس ، بل بعضهم أكفر من اليهود والنصارى ، كالذين يدعون إمام أهل وحدة الوجود ابن عربي ، فإن عليه الآن قبة في الشام أ.هـ

ومعلوم أن الفتنة بالصالحين أظهر من الفتة بغيرهم .

إذا تحققت أن الذين قاتلهم رسول الله ﷺ أصح عقولاً , وأخف شركاً من هؤلاء ، فاعلم أن لهؤلاء شبهة يوردونها على ما ذكرنا , وهي من أعظم شبههم فأصغي سمعك لجوابها .

وهي أنهم يقولون : إن الذين نزل فيهم القرآن لا يشهدون ألا إله إلا الله ، ويكذبون رسول الله ﷺ وينكرون البعث ، ويكذبون القرآن ، ويجعلونه سحراً .

ونحن نشهد ألا إله إلا الله , وأن محمداً رسول الله ، ونصدق القرآن ، ونؤمن بالبعث ، ونصلي , ونصوم , فكيف تجعلوننا مثل أولئك ؟!

الشبهة التاسعة :

وخلاصتها : أن من نطق بالشهادتين , وانتسب للإسلام , متمثلاً بأهم أركانه , كالصلاة والصوم , لا يصح تكفيره , ولا قتاله .

وقد قال في آخر رده على هذه الشبهة : فتأمل هذه الشبهة , وهي قولهم : تكفرون المسلمين أناساً يشهدون ألا إله إلا الله , ويصلون , ويصومون . ثم تأمل جوابها , فإنه من أنفع ما في هذه الأوراق أ.هـ

وخلاصة الجواب عليها أن يقال : هذا صحيح , وهو الأصل في المسلم , وقد منعت الشريعة من تكفير المسلم , كما في نصوص كثيرة , وكذلك حرمت الاعتداء عليه في نفسه , وعرضه , وماله .

ولكن دلت نصوص أخرى على أن هذا المسلم لو خالف مقتضى الشريعة , وأتى بما يناقضها لخرج من الإسلام , واستحق القتل , والأدلة على ذلك كثيرة – كما سيبين المصنف – بل هذا الأمر مجمع عليه عند العلماء[1] .

وهذه الشبهة من أعظم ما أثير ضد هذه الدعوة المباركة ، حيث نُسب إليها تكفير المسلمين القائلين (لا إله إلا الله) .

ولذا أطال الشيخ هنا في الجواب عليها ، وذكر عدة أجوبة تبطل هذه الشبهة , ثم وجه الأدلة التي استدل بها هؤلاء على شبهتهم التوجيه الصحيح .

قال الشيخ محمد بن مانع : وذلك أن شبهتهم من أقوى الشبه تلبيساً , وأشد تدليساً , فإن من شهد ألا إله إلا الله , وصلى , وصام , عظم إطلاق الكفر عليه عند الجاهل , ولم يعلم أنه هدم هذه الأعمال بشركه ودعوته غير الله , فلم تنفعه عبادته , لأن من لم يأت بالتوحيد الخالص , لم يعبد الله , فلهذا صار هذا الجواب من أنفع الأجوبة أ.هـ

---

(١) وانظر محاضرة للشيخ عبدالعزيز بن باز في بيان معنى كلمة (لا إله إلا الله) في مجموع فتاواه , جمع الشيخ عبدالله الطيار (ج١ص١٩٥) .

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا : أن المعارضين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أصناف متنوعة :

١. فمنهم من يعارضه في مسألة الشرك بصرف العبادات لغير الله , وأن هذا من باب الوسيلة المشروعة , ومن باب طلب الشفاعة , وهؤلاء هم من قصدهم في الأجوبة السابقة .

٢. ومنهم من يجعل بعض هذه الأمور من باب الشرك الأصغر(١) .

٣. وهناك صنف آخر يوافق الشيخ في كون تلك الأمور من الشرك الأكبر المخرج من الملة , ولكنهم يخالفون الشيخ في مسألة تنزيل الكفر عليهم , وفي مسألة قتالهم(٢) , وشبهتهم في ذلك ما ذكره هنا من أن أولئك عندهم إيمان بالله , وتصديق بالقرآن , ومحبة للرسول ﷺ , وعندهم صلاة , وصيام , وحج , وغير ذلك من العبادات , ولذا عظم عليهم تكفير أولئك , وقتالهم , وهؤلاء هم الذين يقصد الشيخ كشف شبهتهم هنا , والجواب عليها .

وقد ذكر الشيخ في مواضع من كتبه أنه راسل العلماء في أقطار المسلمين حول دعوته فأيدوه على صحة ما ذهب إليه من كون ما يفعل عند الأضرحة وغيرها من باب الشرك الأكبر المخرج من الملة , ولكنهم خالفوه في تكفير وقتال من فعل ذلك(٣) .

قال الشيخ رحمه الله : فلما اشتهر عني هؤلاء الأربع – يعني : التوحيد , والشرك , والتكفير , والقتال – صدقني من يدعي أنه من العلماء في جميع البلدان في التوحيد ، وفي نفي الشرك ، وردوا عليَّ **التكفير , والقتال** .

وقال رحمه الله : مثال ذلك : إذا صح أن أهل الأحساء , والبصرة يشهدون أن التوحيد الذي تقول دين الله ورسوله ، وأن هذا المفعول عندهم في الأحياء , والأموات هو الشرك بالله ، ولكن أنكروا علينا **التكفير , والقتال خاصة** .

وقال رحمه الله : فإذا قيل : التوحيد زين ، والدين حق ، إلا **التكفير , والقتال** .

قيل : اعملوا بالتوحيد , ودين الرسول ، ويرتفع حكم التكفير ، والقتال , فإن كان حق التوحيد الإقرار به ، والإعراض عن أحكامه ، فضلاً عن بغضه ومعاداته ، فهذا والله عين الكفر وصريحه , فمن أشكل عليه من ذلك شيء فليطالع سيرة محمد ﷺ , وأصحابه , والسلام عائد عليكم ، كما بدا ، ورحمة الله وبركاته .

وقال رحمه الله : ولكنهم يجادلونكم اليوم بشبهة واحدة ، فأصغوا لجوابها ، وذلك أنهم يقولون : كل هذا حق ، نشهد أنه دين الله ورسوله ، إلا **التكفير ، والقتال** , والعجب ممن يخفى عليه جواب هذا ! إذا أقروا أن هذا دين الله ورسوله ، كيف لا يكفر من أنكره ، وقتل من أمر به , وحبسهم ، كيف لا يكفر من أمر بحبسهم ؟! كيف لا يكفر من جاء إلى أهل الشرك يحثهم على لزوم دينهم , وتزيينه لهم ؟! ويحثهم على قتل الموحدين ، وأخذ مالهم ، كيف لا يكفر ، وهو يشهد أن هذا الذي يحث عليه أن الرسول ﷺ أنكره ونهى عنه ؟! وسماه الشرك بالله ، ويشهد أن هذا الذي يبغضه ، ويبغض أهله ، ويأمر المشركين بقتلهم ، هو دين الله ورسوله! .

واعلموا أن الأدلة على تكفير المسلم الصالح إذا أشرك بالله ، أو صار مع المشركين على الموحدين ولو لم يشرك ، أكثر من أن تحصر من كلام الله ، وكلام رسوله .

---

(١) كحال سليمان بن عبدالوهاب وغيره , يقول ابن عفالق : فاجتمعت الأمة على أن الذبح , والنذر لغير الله حرام ، ومن فعلها فهو عاص لله ورسوله , والذي منع العلماء من تكفيرهم أنهم لم يفعلوا ذلك باعتقاد أنها أنداد لله .

(٢) وينبه أن الشيخ لا يكفر , ولا يقاتل كل من وقع في تلك الكفريات , وإنما يكفر من قامت عليه الحجة , كما هو ظاهر من صنيعه رحمه الله .

قال رحمه الله في إحدى رسائله : وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على عبد القادر , والصنم الذي على أحمد البدوي , وأمثالهما لأجل جهلهم , وعدم من ينبههم .

(٣) وعليه فهذه الشبهة أكثر ما كانت عند من يدعي العلم , والله المستعان .

وقال رحمه الله : ونقول ثانياً : إذا كانوا أكثر من عشرين سنة ، يقرون ليلاً ونهاراً ، سراً وجهاراً أن التوحيد الذي أظهر هذا الرجل هو دين الله ورسوله ، لكن الناس لا يطيعوننا ، وأن الذي أنكره هو الشرك ، وهو صادق في إنكاره ، ولكن لو يسلم **من التكفير , والقتال** كان على الحق , هذا كلامهم على رؤوس الأشهاد ، ثم مع هذا يعادون التوحيد , ومن مال إليه ، العداوة التي تعرف ، ولو لم يكفر ويقاتل .

فالجواب : أنه لا خلاف بين العلماء كلهم أن الرجل إذا صدق رسول الله ﷺ في شيء ، وكذبه في شيء أنه كافر لم يدخل في الإسلام , وكذلك إذا آمن ببعض القرآن , وجحد بعضه ، كمن أقر بالتوحيد , وجحد وجوب الصلاة ، أو أقر بالتوحيد , والصلاة , وجحد وجوب الزكاة ، أو أقر بهذا كله , وجحد وجوب الصوم ، أو أقر بهذا كله , وجحد وجوب الحج .

ولما لم ينقد أناس في زمن النبي ﷺ للحج أنزل الله تعالى في حقهم ﴿ وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

ومن أقر بهذا كله , وجحد البعث كفر بالإجماع , وحل دمه وماله , كما قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ الآية .

فإذا كان الله تعالى قد صرح في كتابه أن من آمن ببعض , وكفر ببعض فهو كافر حقاً , زالت هذه الشبهة . وهذه هي التي ذكرها بعض أهل الأحساء في كتابه الذي أرسل إلينا .

ويقال : إذا كنت تقر أن من صدق الرسول ﷺ في شيء , وجحد وجوب الصلاة فهو كافر حلال الدم والمال بالإجماع ، وكذلك إذا أقر بكل شيء إلا البعث ، وكذلك لو جحد وجوب صوم رمضان ، وكذب بذلك لا يُجحد هذا , ولا تختلف المذاهب فيه ، وقد نطق به القرآن كما قدمنا .

فمعلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي ﷺ وهو أعظم من الصلاة , والزكاة , والصوم , والحج , فكيف إذا جحد الإنسان شيئاً من هذه الأمور كفر – ولو عمل بكل ما جاء به الرسول ﷺ – وإذا جحد التوحيد الذي هو دين الرسل كلهم لا يكفر؟! سبحان الله ما أعجب هذا الجهل .

الجواب الأول :

وخلاصته : أن العلماء أجمعوا على أن من آمن ببعض ما جاء به النبي ﷺ وأنكر البعض الآخر أنه كافر ، وإن قال (لا إله إلا الله) نقل الإجماع على ذلك : ابن عبد البر ، وابن المنذر ، وابن حزم ، وابن تيمية .

وقد ذكر الشيخ هنا عدة أمثلة ، والقاعدة في ذلك : أن كل من أنكر شيئاً مما جاء به النبي ﷺ فقد كفر ، وإن قال (لا إله إلا الله) .

وهم يقرون أن من قال (لا إله إلا الله) وأنكر وجوب الصلاة , أو الصوم , أو أنكر آية واحدة من القرآن , أو أنكر البعث أنه كافر , فكيف بمن أنكر التوحيد(٢) .

---

(١) قال ابن جرير الطبري في تفسيره : حدثني محمد بن عمرو قال: حدثنا أبو عاصم قال: حدثنا عيسى، عنْ ابن أبي نجيح، عن عكرمة مولى ابن عباس في قول الله عز وجل: (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا) فقالت الملل: نحن مسلمون, فأنزل الله عز وجل (ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) فحج المؤمنون، وقعد الكفار. جامع البيان في تأويل القرآن، للإمام ابن جرير الطبري ٥٠/٦.

(٢) والخطاب هنا مع من يقر أن صرف العبادة لغير الله كفر , كما سبق بيان ذلك .

ويقال أيضاً لهؤلاء : أصحاب رسول الله ﷺ قاتلوا بني حنيفة , وقد أسلموا مع النبي ﷺ وهم يشهدون ألا إله إلا الله , وأن محمداً عبده ورسوله , ويصلون , ويؤذنون .

فإن قال : إنهم يشهدون أن مسيلمة نبي .

قلنا : هذا هو المطلوب ، إذا كان من رفع رجلاً في رتبة النبي ﷺ كفر , وحل ماله , ودمه , ولم تنفعه الشهادتان , ولا الصلاة , فكيف بمن رفع شمسان , أو يوسف[1] ، أو صحابياً , أو نبياً في مرتبة جبار السماوات والأرض ؟!

سبحانه ما أعظم شأنه ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ .

الجواب الثاني :

وخلاصته : أن بني حنيفة – وهم أتباع مسيلمة الكذاب ، وهم أشهر أهل الردة – كانوا يشهدون ألا إله إلا الله , ويؤذنون , ويصلون ، ومع ذلك كفرهم الصحابة , وقاتلوهم ، فهذا يدل على أنه لا بد من الإيمان بجميع ما شرعه الله .

فإن قالوا : هؤلاء كفروا لأنهم جعلوا مسيلمة نبياً .

فنقول لهم : وهذا يدل أنهم كفروا بذلك مع أنهم يقولون (لا إله إلا الله) ويصلون , فدل أنهم كفار مع إتيانهم بذلك , ولم ينفعهم ذلك , فبطل قولكم .

ثم نقول لهم : إذا كان هؤلاء كفروا لأنهم جعلوا مسيلمة نبياً , ورفعوه إلى منزلة النبوة , فكيف بمن رفع شخصاً أياً كان إلى مرتبة الألوهية , أو الربوبية ؟!

---

(١) قال الشيخ محمد بن إبراهيم : (يوسف , وشمسان , وتاج) أسماء أناس كفرة طواغيت , فأما (تاج) فهو من أهل الخرج تصرف إليه النذور , ويدعى , ويعتقد فيه النفع والضر ، وكان يأتي إلى أهل الدرعية من بلد الخرج لتحصيل ما له من النذور ، وقد كان يخافه كثير من الناس الذين يعتقدون فيه ، وله أعوان وحاشية لا يتعرض لهم بمكروه ، بل يدعى فيهم الدعاوى الكاذبة , وتنسب إليهم الحكايات القبيحة ، ومما ينسب إلى تاج أنه أعمى ويأتي من بلده الخرج من غير قائد يقوده .

وأما (شمسان) فالذي يظهر من رسائل إمام الدعوة رحمه الله أنه لا يبعد عن العارض ، وله أولاد يعتقد فيهم .

وأما (يوسف) فقد كان على قبره وثن يعتقد فيه ، ويظهر أن قبره في الكويت , أو الأحساء كما يفهم من بعض رسائل الشيخ .

وأما تاريخ وجودهم فهو قريب من عصر إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله , وقد ذكرهم في كثير من رسائله , لأنهم من أشهر الطواغيت التي يعتقد فيها أهل نجد وما يقاربها ، وكانوا يعتقدون فيهم الولاية , ويصرفون لهم شيئاً من العبادة ، وينذرون لهم النذور ، ويرجون بذلك نظير ما يرجوه عباد اللات والعزى أ.هـ

ويقال أيضاً : الذين حرقهم علي بن أبي طالب ﷺ بالنار كلهم يدّعون الإسلام , وهم من أصحاب علي ﷺ وتعلموا العلم من الصحابة ، ولكن اعتقدوا في علي مثل الاعتقاد في يوسف , وشمسان , وأمثالهما .

فكيف أجمع الصحابة على قتلهم , وكفرهم ؟!

أتظنون الصحابة يكفرون المسلمين ؟!

أم تظنون الاعتقاد في تاج وأمثاله لا يضر ، والاعتقاد في علي بن أبي طالب يكفِّر ؟!

الجواب الثالث :

وخلاصته : أن علي بن أبي طالب حرَّق أناساً بالنار لما أتوا ما ينقض اسلامهم ، مع أنهم يقولون (لا إله إلا الله) ويدعون الإسلام , وقد أجمع الصحابة على كفرهم وقتلهم , وإن خالف بعضهم في طريقة القتل .

جاء في البخاري أن علياً ﷺ أُتي بزنادقة فأحرقهم ، فبلغ ذلك ابن عباس فقال : لو كنت أنا لم أحرقهم لنهي رسول الله ﷺ : لا تعذبوا بعذاب الله ، ولقتلتهم لقول رسول الله ﷺ : من بدل دينه فاقتلوه . رواه البخاري

وقد اختلف أهل العلم في حال أولئك النفر الذين حرقهم علي رضي الله عنه , والأشهر أنهم طائفة من الشيعة السبئية .

وعليه فقول الشيخ هنا (وهم من أصحاب علي ﷺ وتعلموا العلم من الصحابة) فيه نظر , والله أعلم .

ويقال أيضاً : بنو عُبيد القدَّاح الذين ملكوا المغرب ومصر في زمن بني العباس , كلهم يشهدون ألا إله إلا الله , وأن محمداً رسول الله ، ويدّعون الإسلام , ويصلون الجمعة والجماعة .

فلما أظهروا مخالفة الشريعة في أشياء دون ما نحن فيه , أجمع العلماء على كفرهم وقتالهم ، وأن بلادهم بلاد حرب , وغزاهم المسلمون حتى استنقذوا ما بأيديهم من بلدان المسلمين .

الجواب الرابع :

وخلاصته : أن العبيديين – الذين يسمون أنفسهم كذباً بالفاطميين – كانوا يشهدون ألا إله إلا الله ، ويدّعون الإسلام , ويصلون الجمعة والجماعة , ومع ذلك أجمع علماء زمانهم – زمن بني العباس – ومن بعدهم على كفرهم وقتالهم .

نقل الإجماع على ذلك : ابن تيمية ، وابن القيم ، وابن كثير .

قال الشيخ عبدالرحمن البراك : وقول الشيخ (في أشياء دون ما نحن فيه) فيه نظر , فالقول بأنه دون ما عليه القبوريون الجهال ليس بظاهر , لأن بني عبيد القداح ملاحدة من غلاة الروافض .

وقال الشيخ عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف حفظه الله : ما ذكره المؤلف عنهم أنهم يشهدون الشهادتين , ويصلون الصلوات ، فلعله باعتبار أنهم يتظاهرون بذلك ، لكن حقيقتهم أنهم أعظم كفراً من اليهود والنصارى ، فأي كفر أعظم من نقض التوحيد , والقول بقدم العالم ، والطعن في النبوات ، وإبطال الشرائع ، واستحلال المحرمات .

وفي كلام المؤلف عنهم في كتابه مختصر سيرة الرسول ﷺ ما دل على ذلك ، وهو أكثر دقة وتفصيلاً ، حيث قال عنهم : وأظهروا شرائع الإسلام ، وإقامة الجمعة والجماعة ، ونصبوا القضاة والمفتين ، لكن أظهروا الشرك , ومخالفة الشريعة ، وظهر منهم ما يدل على نفاقهم , وشدة كفرهم ، فأجمع أهل العلم أنهم كفار ، وأن دارهم دار حرب أ.هـ

قال ابن تيمية : وبالجملة فعلم الباطن الذي يدّعون ، مضمونه الكفر بالله , وملائكته , وكتبه , ورسله , واليوم الآخر ، بل هو جامع لكل كفر .

وقال عبد القاهر البغدادي : والذي يصح عندي من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة , يقولون بقدم العالم ، وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع .

وقال أبو حامد الغزالي عنهم : والمنقول عنهم الإباحة المطلقة , واستباحة المحظورات , واستحلالها , وإنكار الشرائع .

ويقال أيضاً : إذا كان الأولون لم يكفروا إلا لأنهم جمعوا بين الشرك , وتكذيب الرسول والقرآن ، وإنكار البعث , وغير ذلك , فما معنى الباب الذي ذكره العلماء في كل مذهب (باب حكم المرتد) وهو المسلم الذي يكفر بعد إسلامه .

ثم ذكروا أشياء كثيرة كل نوع منها يكّفر , ويحل دم الرجل وماله , حتى إنهم ذكروا أشياء يسيرة عند من فعلها ، مثل كلمة يذكرها بلسانه دون قلبه , أو كلمة يذكرها على وجه المزح واللعب[1] .

الجواب الخامس :

وخلاصته : أن العلماء في كل مذهب ذكروا في أبواب الفقه باباً يسمى (باب حكم المرتد) وهذا الباب خاص فيمن يقول (لا إله إلا الله) ثم يأتي بمكفر .

وذكروا أسباباً للردة , كثير منها أهون مما يفعله هؤلاء ويعتقدونه ، فكيف إذن بما يفعله هؤلاء ويعتقدونه ؟!

---

(١) يدل عليه حديث أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد مما بين المشرقين . متفق عليه ، واللفظ للبخاري .
وجاء عنه رضي الله عنه مرفوعاً : إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار . رواه الترمذي .
وقال ابن تيمية في الصارم المسلول : أجمع المسلمون على أن من استهزأ بالله ورسوله ولو كان مازحاً لاعباً فإنه كافر بالله مرتد .

ويقال أيضاً : الذين قال الله فيهم ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ ﴾ أما سمعت الله كفرهم بكلمة مع كونهم في زمن الرسول ﷺ , ويجاهدون معه , ويصلون معه , ويزكون , ويحجون , ويوحدون ؟!

وكذلك الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ .

فهؤلاء الذين صرح الله أنهم كفروا بعد إيمانهم , وهم مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك , قالوا كلمة ذكروا أنهم قالوها على وجه المزح .

فتأمل هذه الشبهة , وهي قولهم : تكفرون المسلمين أناساً يشهدون ألا إله إلا الله , ويصلون , ويصومون . ثم تأمل جوابها , فإنه من أنفع ما في هذه الأوراق .

الجواب السادس :

وخلاصته : أن أناساً ممن كانوا مع النبي ﷺ وكانوا يتلفظون بـ(لا إله إلا الله) ويصلون , ويزكون , ويجاهدون , ومع ذلك كفرهم الله بسبب ما أتوا من موجبات الكفر , وذكر الشيخ هنا مثالين :

الأول : الذين يصدر منهم كلام الكفر , فلما يتبين أمرهم يحلفون أنهم ما قالوا ذلك , وهذا حال المنافقين , وهم المعنيون بهذه الآية على الصحيح ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ ﴾[1] .

قال السعدي : فإسلامهم السابق – وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر– فكلامهم الأخير ينقض إسلامهم ، ويدخلهم بالكفر .

الثاني : الذين سخروا بالصحابة في غزوة تبوك ، مع أنهم خرجوا مجاهدين , ويقولون (لا إله إلا الله) ويصلون ، ويزكون ، ويحجون ، ومع ذلك كفرهم الله بقوله ﴿ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ فإذا كان هؤلاء كفروا لأنهم قالوا كلمة كفر على وجه المزح ، فكيف بمن لم يقل فقط ، بل فعل أيضاً ؟! وكيف بمن فعل لا على وجه المزح بل على وجه الجد ؟!

---

(١) ذكر ابن الجوزي في (زاد المسير) ثلاثة أقوال في سبب نزول الآية :

أحدها : أن رسول الله ﷺ ذكر المنافقين فعابهم , فقال الجُلاس بن سويد : إن كان ما يقول على إخواننا حقاً لنحن شرٌّ من الحمير . فقال عامر بن قيس : والله إنه لصادق , ولأنتم شرٌّ من الحمير , وأخبر رسول الله ﷺ بذلك ، فأتى الجلاسُ فقال : ما قلتُ شيئاً ، فحلفا عند المنبر ، فنزلت هذه الآية . قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وذهب إلى نحوه الحسن , ومجاهد , وابن سيرين .

والثاني : أن عبد الله بن أُبيّ قال : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذل . فسمعه رجل من المسلمين ، فأخبر رسول الله ﷺ فأرسل إليه ، فجعل يحلف بالله ما قال ، فنزلت هذه الآية . قاله قتادة .

والثالث : أن المنافقين كانوا إذا خَلَوْا سبُّوا رسول الله وأصحابه ، وطعنوا في الدين , فنقل حذيفة إلى رسول الله ﷺ بعض ذلك ، فحلفوا ما قالوا شيئاً ، فنزلت هذه الآية . قاله الضحاك .

مسألة : اختلف أهل العلم في حال أولئك النفر قبل أن يقولوا هذا الكلام على قولين :

١. كانوا منافقين أصلاً : وهذا الذي عليه أكثر المفسرين فيما وقفت عليه من أقوالهم , واختاره شيخنا ابن عثيمين , وأما قول الله تعالى ﴿ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ أي كفرتم ظاهراً بعد أن كان كفركم باطناً , فظهر كفركم للناس .

ويؤيد هذا أن طائفة من المنافقين خرجوا مع النبي ﷺ في غزوة تبوك كما هو معلوم .

٢. كانوا من الصحابة : وكان إيمانهم ضعيفاً ، ولم يقصدوا الوقوع في الكفر مع علمهم بأنه أمر محرم .

وهذا القول نصره ابن تيمية ، واختاره محمد بن عبد الوهاب ، وصاحب فتح المجيد .

وهذه الآيات وإن كانت نزلت في المنافقين على الصحيح إلا أن الاستدلال بها في هذا الموضع صحيح , لأن الشبهة : أن من قال (لا إله إلا الله) وصلى , وصام لا يكفر , وهذه الصورة موجودة في حال المنافقين .

ومن الدليل على ذلك أيضاً : ما حكى الله عز وجل عن بني إسرائيل مع إسلامهم , وعلمهم , وصلاحهم أنهم قالوا لموسى ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهاً ﴾ .

وقول أناس من الصحابة (اجعل لنا ذات أنواط) فحلف رسول الله ﷺ أن هذا مثل قول بني إسرائيل ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَهاً ﴾ .

الجواب السابع :

وخلاصته : أن طائفة من قوم موسى عليه السلام قالوا لموسى (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة)[١] .

وقال طائفة من أصحاب خير المرسلين محمد ﷺ (اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط) فجعل النبي ﷺ هذه المقالة مثل مقالة أصحاب موسى (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) .

وبيان ذلك : أنها كلمة كفر ، فدل أن الإنسان وإن قال (لا إله إلا الله) وكان على صلاح , وهدى ، فإنه قد يكفر بكلمة يقولها ، أو اعتقاد يعتقده ، أو عمل يعمله .

مسألة : الذي يظهر أن طلب الصحابة من باب الشرك الأصغر[٢] , وأما وجه التشبيه بين مقالة أصحاب موسى , وأصحاب النبي ﷺ أن أصحاب موسى لما جاوزوا البحر مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم , فطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً كما لهم آلهة , وهذا **الطلب** شرك أكبر بلا إشكال , وأصحاب النبي ﷺ لما مروا على المشركين وهم يعكفون عند شجرة يطلبون بركتها , طلبوا من النبي ﷺ شجرة يتبركون بها , ولم يظنوا أن التبرك ممنوع , لأنهم حدثاء عهد بكفر .

فوجه الشبه بين المقالتين إما أن يكون في أصل الحكم (هذا شرك أكبر , وهذا شرك أصغر) وإما أن يكون في الحال (هؤلاء نصرهم الله على فرعون ونجاهم من كيده فطلبوا الباطل , وهؤلاء نصرهم الله على المشركين فطلبوا الباطل) والله أعلم .

وهذا الطلب لم يكن من جميع الصحابة , بل من الذين أسلموا حديثاً عام الفتح , كما صرح أبو واقد الليثي , وكان ممن أسلم عام الفتح .

قال أبو واقد الليثي رضي الله عنه : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر , وللمشركين سدرة يعكفون عندها , وينوطون بها أسلحتهم , يقال لها (ذات أنواط) فمررنا بسدرة , فقلنا : يا رسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر إنها السنن , قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة , قال إنكم قوم تجهلون , لتركبن سنن من كان قبلكم . رواه أحمد , وأبو داود , والترمذي وصححه , والنسائي , وصححه الألباني .

---

(١) وأما قول الشيخ هنا (وعلمهم , وصلاحهم) ففيه نظر , لأن هذا القول حصل منهم بعد مجاوزة البحر , ولا يعرف حال من قال ذلك على وجه الخصوص , والله أعلم .

(٢) وقد نص الشيخ محمد بن عبد الوهاب على ذلك في بعض المواضع , كما في مسائل كتاب التوحيد .

وقال ابن تيمية تعليقاً على قصة ذات أنواط : فأنكر النبي ﷺ مشابهتهم للكفار في اتخاذ شجرة يعكفون عليها , معلقين عليها سلاحهم , فكيف بمن هو أعظم من ذلك من مشابهتهم للمشركين , أو هو الشرك بعينه .

ولكن للمشركين شبهة يدلون بها عند هذه القصة , وهي أنهم يقولون : إن بني إسرائيل لم يكفروا بذلك , وكذلك الذين سألوا النبي ﷺ أن يجعل لهم ذاتَ أنواط .

فالجواب أن نقول : إن بني إسرائيل لم يفعلوا , وكذلك الذين سألوا النبي ﷺ لم يفعلوا .

ولا خلاف أن بني إسرائيل لو فعلوا ذلك لكفروا .

ولا خلاف أن الذين نهاهم النبي ﷺ لو لم يطيعوه ، واتخذوا ذات أنواط بعد نهيه لكفروا .

وهذا هو المطلوب .

بعد أن ذكر المصنف هذه الأجوبة على تلك الشبهة الكبيرة ، وهي أن من قال (لا إله إلا الله) وصلى لا يكفر ، ذكر هنا بعض الأدلة التي يستدلون بها على هذه الشبهة[١] .

الدليل الأول والثاني , والجواب عليهما :

خلاصة الدليلين : أن أصحاب موسى قالوا كلمة الكفر ومع ذلك لم يكفروا , وكذلك أصحاب النبي ﷺ .

وخلاصة الجواب عليهما :

أن يقال : هؤلاء لم يفعلوا ذلك ، ولو فعلوا ذلك لكفروا بهذا الفعل بعد العلم بالحكم ، وهذا ما قد يُفهم من جواب الشيخ هنا[٢].

وفي هذا الجواب نظر , لأنهم لو اعتقدوا جواز ذلك – مع العلم بالحكم – لكفروا ولو لم يفعلوا .

وهذا الأمر لا يخفى على الشيخ قطعاً , ولعله يقصد أنهم طلبوا ذلك عن جهل منهم بالحكم , فلما نُبهوا تنبهوا فامتنعوا عن الفعل , ولذا قال بعدها في تعداد فوائد القصة : (وتفيد أيضاً : أن المسلم المجتهد الذي إذا تكلم بكلام الكفر – وهو لا يدري – فنُبه على ذلك , وتاب من ساعته أنه لا يكفر , كما فعل بنو إسرائيل , والذين سألوا رسول الله ﷺ) .

فالأقرب أن يقال : هؤلاء قالوا ذلك عن جهل بالحكم , ولذا قال أبو واقد وهو راوي الحديث : ونحن حدثاء عهد بكفر .

---

(١) وهذا الاستدلال وجواب الشيخ عليه داخل في الجواب على الشبهة التاسعة ، إذ هذه الأدلة يستدلون بها على تقرير تلك الشبهة .

(٢) أما أصحاب موسى فلو فعلوا لكفروا , لأن طلبهم من باب الشرك الأكبر بلا شك , وأما أصحاب النبي ﷺ فلو فعلوا لكفروا على المخالفة لأمر النبي ﷺ , وإن كان في هذا إشكال أيضاً .

وقد ذكر الشيخ في موضع أن هذا الطلب من باب الشرك الأصغر , كما سبق .

ولكن هذه القصة تفيد : أن المسلم – بل العالم – قد يقع في أنواع من الشرك لا يدري عنها .

فتفيد التعلم , والتحرز , ومعرفة أن قول الجاهل (التوحيد فهمناه) أن هذا من أكبر الجهل , ومكائد الشيطان .

وتفيد أيضاً : أن المسلم المجتهد الذي إذا تكلم بكلام الكفر – وهو لا يدري – فنُبه على ذلك , وتاب من ساعته أنه لا يكفر , كما فعل بنو إسرائيل , والذين سألوا رسول الله ﷺ .

وتفيد أيضاً : أنه لو لم يكفر فإنه يغلظ عليه الكلام تغليظاً شديداً , كما فعل رسول الله ﷺ .

بعد أن ذكر المصنف قصة ذات أنواط ذكر بعض الفوائد المستفادة من هذه القصة ، وهي كالتالي :

أ. أهمية التعلم , والتحرز ، التعلم للجاهل ، والتحرز للعالم , أما التعلم فحتى لا يقع في الشرك بسبب جهله , وأما التحرز فلأن الذين هم أفضل منه كادوا يقعوا في الشرك ووسائله .

ب. لا بد من تكرار تدريس التوحيد وشرحه , وتفهيم الناس له حتى يفهموه فهماً جيداً ، وقول الجاهل (التوحيد فهمناه) من أكبر الجهل , ومكائد الشيطان[1].

قال الشيخ محمد بن إبراهيم : لا يُزهد في التوحيد , فإن بالزهد فيه يوقع في ضده , وما هلك من هلك ممن يدعي الإسلام إلا بعدم إعطائه حقه , ومعرفته حق المعرفة .

ج. أن من نطق بكلمة الكفر جاهلاً – وكان مثله يعذر بذلك – فإنه لا يكفر حتى تبلغه الحجة .

قال ابن تيمية : وليس لأحد أن يكفر أحداً من المسلمين , وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة , وتبين له المحجة .

د. أن من تكلم بالكفر ولو كان جاهلاً يغلظ عليه الكلام تغليظاً شديداً , كما فعل النبي ﷺ وكما فعل موسى عليه السلام حين قال لقومه (إنكم قوم تجهلون) .

---

(١) قال الشيخ محمد بن إبراهيم : وهذه الكلمة (التوحيد فهمناه) قد صدرت من بعض الطلبة لما كثر التدريس في التوحيد متنه , أو كتب نحوه سئموا , وأرادوا القراءة في كتب أخرى . وقيل : إنها صدرت من المراسلين أ.هـ

وفي بعض رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب قال : ومع هذا يقول لكم شيطانكم المويس : إن بنيات حَرْمَة وعيالهم يعرفون التوحيد فضلاً عن رجالهم . وحَرْمَة : قرية قريبة من المجمعة .

وللمشركين شبهة أخرى يقولون : إن النبي ﷺ أنكر على أسامة ﷺ قتل من قال (لا إله إلا الله) وقال : أقتلته بعدما قال (لا إله إلا الله) .

وكذلك قوله (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله) .

وكذلك أحاديث أخرى في الكف عمن قالها .

ومراد هؤلاء الجهلة أن من قالها لا يكفر ، ولا يقتل ولو فعل ما فعل .

فيقال لهؤلاء الجهلة المشركين : معلوم أن رسول الله ﷺ قاتل اليهود وسباهم , وهم يقولون لا إله إلا الله , وأن أصحاب رسول ﷺ قاتلوا بني حنيفة , وهم يشهدون ألا إله إلا الله , وأن محمداً رسول الله , ويصلون ، ويدعون الإسلام , وكذلك الذين حرقهم علي بن أبي طالب ﷺ بالنار .

وهؤلاء الجهلة مقرون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال (لا إله إلا الله) وأن من أنكر شيئاً من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها .

فكيف لا تنفعه إذا جحد شيئاً من الفروع , وتنفعه إذا جحد التوحيد الذي هو أساس دين الرسل ورأسه ؟!

ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث :

فأما حديث أسامة ﷺ فإنه قتل رجلاً ادعى الإسلام بسبب أنه ظن أنه ما ادعاه إلا خوفاً على دمه وماله .

والرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك .

وأنزل الله تعالى في ذلك ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ الآية ، أي : تثبتوا .

فالآية تدل على أنه يجب الكف عنه والتثبت ، فإن تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل لقوله ﴿ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى .

وكذلك الحديث الآخر وأمثاله , معناه ما ذكرتُ : أن من أظهر الإسلام والتوحيد وجب الكف عنه إلا أن تبين منه ما يناقض ذلك .

والدليل على هذا : أن رسول الله ﷺ الذي قال (أقتلته بعدما قال : لا إله إلا الله) وقال (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله) هو الذي قال في الخوارج (أينما لقيتموهم فاقتلوهم) (لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد) مع كونهم من أكثر الناس عبادة , وتهليلاً , حتى إن الصحابة يحقرون أنفسهم عندهم , وهم تعلموا العلم من الصحابة .

فلم تنفعهم (لا إله إلا الله) ولا كثرة العبادة ، ولا ادعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة .

وكذلك ما ذكرنا من قتال اليهود , وقتال الصحابة رضي الله عنهم بني حنيفة .

وكذلك أراد النبي ﷺ أن يغزو بني المصطلق لما أخبره رجل منهم أنهم منعوا الزكاة ، حتى أنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ الآية . وكان الرجل كاذباً عليهم .

فكل هذا يدل على أن مراد النبي ﷺ في الأحاديث الواردة ما ذكرناه .

ذكر المصنف هنا دليلين آخرين على هذه الشبهة , وأجاب عليهما :

الدليل الثالث والرابع , والجواب عليهما :

خلاصة الدليل الثالث : أن النبي ﷺ أنكر على أسامة بن زيد قتله الرجل الذي قال (لا إله إلا الله) وغلظ عليه القول , حتى قال أسامة : لقد تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم(١) .

وخلاصة الدليل الرابع : أن النبي ﷺ نهى عن قتل من قال (لا إله إلا الله)(٢) .

فدل أن من قال (لا إله إلا الله) لا ينبغي أن يُقتل .

وخلاصة الجواب على الدليلين :

١. جواب عام : وهو خلاصة ما سبق ذكره من الإجابات على هذه الشبهة , من قتال النبي ﷺ لليهود مع أنهم يقولون (لا إله إلا الله) وقتال الصحابة لبني حنيفة وهم يقولونها , وتحريق علي رضي الله عنه لطائفة ممن يقول هذه الكلمة .

ويقال أيضاً : أنتم تقولون : من أنكر البعث كفر , ومن أنكر ركناً من أركان الإسلام كفر – وهو كذلك – حتى لو قال (لا إله إلا لله) فدل على بطلان قولكم .

٢. جواب خاص : أن الإنسان إذا ادعى الإسلام وجب الكف عنه حتى يتبين منه صدق ما قال ، فإن تبين منه بعد ذلك ناقض , فإنه يجب تكفيره , وقتله – وإن قال لا إله إلا الله – بالشروط المقررة عند أهل العلم .

قال ابن حجر : يجب الكف عنه حتى يختبر أمره ، هل قال ذلك خالصاً من قلبه , أو خشية من القتل .

---

(١) عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرقة ، فصبحنا القوم فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم ، فلما غشيناه قال (لا إله إلا الله) فكف الأنصاري , فطعنته برمحي حتى قتلته ، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال : يا أسامة ، أقتلته بعدما قال (لا إله إلا الله)؟ قلت : كان متعوذاً , فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم . متفق عليه

وعند مسلم في حديث آخر : قال رسول الله ﷺ : أقتلته ؟ قال : نعم . قال : فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة , قال : يا رسول الله استغفر لي , قال : وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة , قال : فجعل لا يزيده على أن يقول : كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة .

(٢) قال ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا (لا إله إلا الله) فمن قال (لا إله إلا الله) عصم مني ماله , ونفسه , إلا بحقه , وحسابه على الله . متفق عليه

ومما يدل على ذلك قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا)[١] فلو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى .

قال ابن حجر عند هذه الآية : وفي الآية دليل على أن من أظهر شيئاً من علامات الإسلام لم يحل دمه حتى يختبر أمره , لأن السلام تحية المسلمين ، وكانت تحيتهم في الجاهلية بخلاف ذلك , فكانت هذه علامة .

ويمكن أن يجاب عن جميع هذه الأدلة وغيرها مما يُستدل به على أنه لا يجوز تكفير أو قتال من قال (لا إله إلا الله) بما سبق ذكره من الأدلة الدالة على بطلان هذه الشبهة .

وكذلك يقال : النبي ﷺ الذي قال ذلك[٢] هو الذي قال في الخوارج (فأينما لقيتموهم فاقتلوهم , فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة) متفق عليه , وقال عنهم (لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد) متفق عليه , مع أنهم يقولون (لا إله إلا الله) ويصلون , ويصومون , ويقومون الليل , بل أعمالهم أكثر من أعمال الصحابة في الظاهر , كما قال ﷺ (يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم) متفق عليه[٣] .

ويضاف عليه أيضاً أنه ﷺ استثنى في نفس الحديث بقوله (إلا بحقه) فبطل تعميمهم للحديث ، بل صار الحديث حجة عليهم .

قال ابن حجر : إن كان الضمير في قوله (بحقه) للإسلام ، فمهما ثبت أنه من حق الإسلام تناوله ، ولذلك اتفق الصحابة على قتال من جحد الزكاة .

وكذلك أراد النبي ﷺ أن يغزو بني المصطلق لما أخبره رجل منهم أنهم منعوا الزكاة ، حتى أنزل الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ الآية . وكان الرجل كاذباً عليهم .

والخلاصة أن طريقة أهل العلم هي جمع النصوص في المسائل , والتوفيق بينها , وطريقة الذين في قلوبهم زيغ اتباع المتشابه من النصوص , وترك المحكم , والله المستعان .

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير : قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا) في سبب نزولها أربعة أقوال :

أحدها : أن النبي ﷺ بعث سرية فيها المقداد بن الأسود ، فلما أتوا القوم وجدوهم قد تفرقوا ، وبقي رجل له مال كثير لم يبرح ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، فأهوى إليه المقداد بن الأسود فقتله . فقال له رجل من أصحابه : أقتلت رجلاً يشهد أن لا إله إلا الله ؟! لأذكرن ذلك للنبي ﷺ فلما قدموا على النبي ﷺ قالوا له : يا رسول الله : إن رجلاً شهد أن لا إله إلا الله ، فقتله المقداد ، فقال : ادعوا لي المقداد ، فقال : يا مقداد أقتلت رجلاً قال : لا إله إلا الله ، فكيف لك بلا إله إلا الله غداً . فنزلت هذه الآية . فقال رسول الله ﷺ للمقداد : كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلته , وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل . رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : أن رجلاً من بني سليم مر على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ومعه غنم ، فسلم عليهم ، فقالوا : ما سلم عليكم إلا ليتعوذ منا ، فعمدوا إليه فقتلوه , وأخذوا غنمه ، فأتوا بها رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية . رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثالث : أن قوماً من أهل مكة سمعوا بسرية لرسول الله ﷺ أنها تريدهم فهربوا ، وأقام رجل منهم كان قد أسلم يقال له (مرداس) وكان على السرية رجل يقال له (غالب بن فضالة) فلما رأى مرداس الخيل كبر ، ونزل إليهم ، فسلم عليهم ، فقتله أسامة بن زيد ، واستاق غنمه ، ورجعوا إلى النبي ﷺ فأخبروه ، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وجداً شديداً ، وأنزلت هذه الآية . رواه أبو صالح عن ابن عباس , وقال السدي : كان أسامة أمير السرية .

والرابع : أن رسول الله ﷺ بعث أبا حدرد الأسلمي ، وأبا قتادة ، ومحلم بن جثامة في سرية إلى إضم ، فلقوا عامر بن الأضبط الأشجعي ، فحياهم بتحية الإسلام ، فحمل عليه محلم بن جثامة فقتله ، وسلبه بعيراً وسقاء , فلما قدموا على النبي ﷺ أخبروه ، فقال : أقتلته بعد ما قال آمنت ؟! ونزلت هذه الآية . رواه ابن أبي حدرد عن أبيه .

(٢) أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا (لا إله إلا الله) فمن قال (لا إله إلا الله) عصم مني ماله , ونفسه , إلا بحقه , وحسابه على الله . متفق عليه

وقال لأسامة : يا أسامة ، أقتلته بعد ما قال (لا إله إلا الله) . متفق عليه

(٣) تنبيه : الكلام في الخوارج هنا إنما هو عن حكم قتالهم , وأما كفرهم ففي مذهب أحمد روايتان , والصحيح أنهم ليسوا كفاراً , وهذا ما عليه جماهير العلماء من الصحابة ومن بعدهم .

ولهم شبهة أخرى , وهي ما ذكر النبي ﷺ أن الناس يوم القيامة يستغيثون بآدم , ثم بنوح , ثم بإبراهيم , ثم بموسى , ثم بعيسى , فكلهم يعتذرون , حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ .

قالوا : فهذا يدل أن الاستغاثة بغير الله ليست شركاً .

فالجواب أن تقول : سبحان من طبع على قلوب أعدائه ، فإن الاستغاثة بالمخلوق على ما يقدر عليه لا ننكرها , كما قال تعالى ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ .

وكما يستغيث إنسان بأصحابه في الحرب وغيره في أشياء يقدر عليها المخلوق .

ونحن أنكرنا استغاثة العبادة التي يفعلونها عند قبور الأولياء ، أو في غيبتهم[1] في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله تعالى .

إذا ثبت ذلك فالاستغاثة بالأنبياء يوم القيامة يريدون منهم أن يدعوا الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف .

وهذا جائز في الدنيا والآخرة ، أن تأتي عند رجل صالح يجالسك , ويسمع كلامك تقول له : ادع لي . كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه في حياته .

وأما بعد موته فحاشا وكلا أنهم سألوه ذلك عند قبره , بل أنكر السلف على من قصد دعاء الله عند قبره فكيف دعاؤه بنفسه[2] ؟!

---

(١) قال الشيخ محمد بن إبراهيم : قوله (عند قبور الأولياء في غيبتهم) خرج مخرج الواقع والغالب ، وإلا فالأصنام ونحوها كذلك ، والحي الحاضر في الأشياء التي لا يقدر عليها إلا الله ، كالسؤال منه هداية القلوب , أو رفع جبل ونحوه ، وهذا كله استغاثة شركية .

(٢) يشير المصنف إلى نحو ما أخرجه الضياء في (المختارة) وحسنه ابن عبد الهادي في (الصارم المنكي) : أن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رأى رجلاً يجيء إلى فرجة عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه . وقال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته عن أبي , عن جدي , عن رسول الله ﷺ أنه قال : لا تتخذوا قبري عيداً ، ولا بيوتكم قبوراً ، فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم .

الشبهة العاشرة[١] :

وخلاصتها : جواز الاستغاثة بالصالحين ، لثبوت ذلك في حديث الشفاعة .

وخلاصة الجواب عليها : أن هذه الاستغاثة ، وطلب الشفاعة من جنس الاستغاثة الجائزة ، لأن الجميع في ذلك الموقف أحياء حاضرون ، والطلب مقدور عليه ، فهو استدلال في غير محل النزاع .

وبيان ذلك : أن نقول : الاستغاثة بالمخلوق نوعان :

أ. جائزة : وهي الاستغاثة بالحي الحاضر فيما يقدر عليه ، وذكر المصنف الدليل عليها ، وهو قوله تعالى عن موسى عليه السلام ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ .

ب. شركية : وهي الاستغاثة بالميت, أو الغائب , أو في شيء من خصائص الرب سبحانه ،كجلب الرزق , والولد , ونحو ذلك. والاستغاثة التي ينكرها أهل العلم هي الاستغاثة الشركية .

وأما الحديث الذي استدلوا به فلا يدل على مرادهم ، بل هذا النوع يعتبر من الاستغاثة الجائزة ، إذ أن الأنبياء في الموقف أحياء , سمعوهم , وخاطبوهم ، وهؤلاء سألوهم ما يقدرون عليه , وهو أن يشفعوا لهم عند الله .

فأين هذا مما يفعلونه من سؤال الأموات ، أو الغائبين ، أو الحاضرين في أمر لا يقدرون عليه ؟!

---

(١) لو أن الشيخ جعل الشبهة العاشرة والحادي عشرة قبل الشبهة التاسعة لكان أنسب , لِما سبق ذكره من أن الشبه الثماني الأولى في تقرير جواز التوجه للقبور والأضرحة , وكذلك هي الشبهة العاشرة والحادي عشرة , وأما الشبهة التاسعة فأصحابها يوافقون الشيخ في تحريم التوجه للقبور والأضرحة , ويخالفونه في تكفير وقتال من فعل ذلك , وقد سبق بيان ذلك .

ولهم شبهة أخرى , وهي قصة إبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النار اعترض له جبرائيل في الهواء , فقال : ألك حاجة ؟ فقال إبراهيم عليه السلام : أما إليك فلا .

قالوا : فلو كانت الاستغاثة بجبرائيل شركاً لم يعرضها على إبراهيم .

فالجواب : أن هذا من جنس الشبهة الأولى ، فإن جبرائيل عليه السلام عرض عليه أن ينفعه بأمر يقدر عليه , فإنه كما قال الله تعالى فيه ﴿ شديد القوى ﴾ فلو أذن الله له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولها من الأرض والجبال , ويلقيها في المشرق أو المغرب لفعل ، ولو أمره الله أن يضع إبراهيم في مكان بعيد لفعل ، ولو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعل .

وهذا كرجل غني له مال كثير , يرى رجلاً محتاجاً , فيعرض عليه أن يقرضه أو يهبه شيئاً يقضي به حاجته ، فيأبى ذلك الرجل المحتاج أن يأخذ , ويصبر حتى يأتيه الله برزق لا منة فيه لأحد .

فأين هذا من استغاثة العبادة والشرك لو كانوا يفقهون ؟!

الشبهة الحادية عشرة :

وخلاصتها : جواز الاستغاثة بغير الله , لأن جبريل عرضها على إبراهيم عليه السلام , ولأن إبراهيم لم ينكر ذلك عليه .

وخلاصة الجواب عليها :

١. أن هذه القصة ضعيفة[١] .

٢. لو صحت هذه القصة , فإن هذا من نوع الاستغاثة الجائزة , لأن جبريل حاضر , وقادر على الطلب .

قال الشيخ محمد بن إبراهيم : فمن قال إن هذه مثل هذه , أو توقف فيها فهو مصاب في عقله .

---

(١) أخرج هذا الأثر ابن جرير في تفسيره من طريق المعتمر بن سليمان التيمي عن بعض أصحابه ، وعزاه ابن كثير في تفسيره إلى بعض السلف , ورواه البغوي في تفسير سورة الأنبياء في قصة إبراهيم عن كعب الأحبار ، لكنه ساقه بغير سند ، ورواها العجلوني في كشف الخفاء ، وعزاها إلى كعب الأحبار بلفظ فيه اختلاف وزيادة .

قال ابن تيمية : وما يروى أن الخليل لما ألقي في المنجنيق قال له جبريل : سل ، قال : حسبي من سؤالي علمه بحالي , ليس له إسناد معروف وهو باطل , بل الذي ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال : حسبي الله ونعم الوكيل ، قال ابن عباس : قالها إبراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمد حين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم .

وقد روي أن جبريل قال : هل من حاجة ؟ قال أما إليك فلا ، وقد ذكر هذا الإمام أحمد وغيره أ.هـ وانظر السلسلة الضعيفة ١/٧٤

ولنختم الكتاب بذكر آية عظيمة مهمة تُفهم بما تقدم ، ولكن نفرد لها الكلام لعظم شأنها ، ولكثرة الغلط فيها , فنقول : لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب ، واللسان ، والعمل , فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً .

فإن عرف التوحيد , ولم يعمل به , فهو كافر معاند , كفرعون , وإبليس , وأمثالهما .

وهذا يغلط فيه كثير من الناس , يقولون : هذا حق , ونحن نفهم هذا , ونشهد أنه الحق , ولكن لا نقدر أن نفعله , ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم , وغير ذلك من الأعذار .

ولم يعرف المسكين أن غالب أئمة الكفر يعرفون الحق , ولم يتركوه إلا لشيء من الأعذار , كما قال تعالى ﴿ اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً ﴾ وغير ذلك من الآيات , كقوله ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ ﴾ .

فإن عمل بالتوحيد عملاً ظاهراً , وهو لا يفهم[1] , ولا يعتقد بقلبه فهو منافق ، وهو شر من الكافر الخالص , كما قال تعالى ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ .

وهذه مسألة طويلة تبين لك إذا تأملتها في ألسنة الناس , ترى من يعرف الحق ويترك العمل , لخوف نقص دنياه , أو جاهه , أو ملكه .

وترى من يعمل به ظاهراً لا باطناً , فإذا سألته عما يعتقده بقلبه إذا هو لا يعرفه .

ولكن عليك بفهم آيتين من كتاب الله تعالى :

أولاهما : ما تقدم وهي قوله ﴿ لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ .

فإذا تحققت أن بعض الصحابة[2] الذين غزوا الروم مع رسول الله ﷺ كفروا بسبب كلمة قالوها على وجه المزح , تبين لك أن الذي يتكلم بالكفر , ويعمل به خوفاً من نقص مال , أو جاه , أو مداراة لأحد أعظم ممن يتكلم بكلمة يمزح بها .

والآية الثانية : قوله تعالى ﴿ مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً ﴾ الآية .

فلم يعذر الله من هؤلاء إلا من أكره مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان ، وأما غير هذا فقد كفر بعد إيمانه , سواءً فعله خوفاً , أو طمعاً , أو مداراةً لأحد , أو مشحة بوطنه ، أو أهله , أو عشيرته , أو ماله , أو فعله على وجه المزح ، أو لغير ذلك من الأغراض , إلا المكره ، فالآية تدل على هذا من جهتين :

---

(١) قال الشيخ محمد بن إبراهيم : أو فهمه ولكن لم ينقد بجنانه .

(٢) لو قال : بعض من خرج مع النبي ﷺ لكان أقوم , وسبق بيان ذلك .

الأولى : قوله تعالى ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ ﴾ فلم يستثن إلا من أكره ، ومعلوم أن الإنسان لا يكره إلا على العمل , والكلام , والفعل , لا عقيدة القلب فلا يكره عليها أحد .

الثانية : قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّواْ الْحَيَاةَ الْدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ﴾ فصرح أن العذاب لم يكن بسبب الاعتقاد , والجهل , والبغض للدين , أو محبة الكفر , وإنما سببه أن له في ذلك حظاً من حظوظ الدنيا فآثره على الدين , والله أعلم .

هذا هو القسم الثالث من الكتاب , وهو عبارة عن خاتمة مهمة , ختم بها الشيخ هذا الكتاب .

وخلاصتها : أنه لا يجوز للإنسان بعد معرفة التوحيد أن يخالفه , لا بالقول , ولا بالعمل , ولا بالاعتقاد , وأن من حصل منه ذلك فإنه يكفر ولو كانت باقي الأمور لا خلل فيها ولا مخالفة ، ويستثنى من ذلك حالة واحدة فقط , وهي المكره بشرط أن يكون قلبه مطمئن بالإيمان .

وبيان ذلك : أن أناساً ممن كانوا في زمن الشيخ , كانوا على قناعة تامة بما جاء به الشيخ من أمر التوحيد , والشرك , ولكنهم لم يلتزموا بذلك , لأسباب مختلفة ذكرها الشيخ هنا بقوله (يقولون : هذا حق , ونحن نفهم هذا , ونشهد أنه الحق , ولكن لا نقدر أن نفعله , ولا يجوز عند أهل بلدنا إلا من وافقهم , وغير ذلك من الأعذار) .

وبقوله (وهذه مسألة طويلة تبين لك إذا تأملتها في ألسنة الناس , ترى من يعرف الحق ويترك العمل , لخوف نقص دنياه , أو جاهه , أو ملكه) .

فأراد الشيخ هنا أن يبين أن من وقع في مثل هذا فهو كافر , لأنه غير معذور بتلك الأعذار , وذكر أن أئمة الكفر كان لهم أعذار , وبين رحمه الله أن الشخص لا يعذر إلا في حال الإكراه الشديد , مع وجوب اطمئنان القلب بالإيمان .

وقد بدأ المصنف في تقرير ذلك بمقدمة في غاية ما تكون من الأهمية ، فذكر مذهب أهل السنة والجماعة في مسألة الإيمان ، وأنه قول , وعمل , واعتقاد , اعتقاد القلب ، وقول اللسان ، وعمل الجوارح , والتوحيد جزء من الإيمان بالمعنى العام ، فلا بد أن يكون بالقلب , واللسان , والعمل , ومتى تخلف أحدها لم يكن ثَم توحيد[1] .

---

(١) قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب : اعلم رحمك الله أن دين الله يكون على القلب بالاعتقاد , وبالحب والبغض , ويكون على اللسان بالنطق , وترك النطق بالكفر , ويكون على الجوارح بفعل أركان الإسلام , وترك الأفعال التي تكفر , فإذا اختل واحدة من هذه الثلاث كفر وارتد .

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم : فلابد من الثلاثة , لابد أن يكون هو المعتَقَد في قلبه , ولابد أن يكون هو الذي ينطق به لسانه , ولابد أن يكون هو الذي تعمل به جوارحه , فإن اختل شي من هذا , لو وحد بلسانه دون قلبه ما نفعه توحيده , ولو وحد بقلبه وأركانه دون لسانه ما نفعه ذلك , ولو وحد بأركانه دون الباقي لم يكن الرجل مسلماً , هذا إجماع أن الإنسان لابد أن يكون موحداً باعتقاده ولسانه وعمله .

وقسم المصنف التوحيد باعتبار محله إلى ثلاثة أقسام :

أ. **توحيد القلب** : وهو إفراد الله بما يستحقه من العبادات القلبية مثل : المحبة ، والخوف ، والتوكل ، والخشية ، وغير ذلك .

ب . **توحيد اللسان** : وهو قول لا إله إلا الله , وهذا واجب ولازم ، لا يسقط إلا مع العجز .

قال ابن تيمية : فمن لم يصدق بلسانه مع القدرة لا يسمى موحداً .

ج . **توحيد الجوارح** : وهو العمل بلا إله إلا الله ، وذلك بصرف أنواع العبادات العملية لله ،كالدعاء , والذبح ، والصلاة , وسائر أنواع العبادات .

ثم بعد ذلك بين أقسام الناس باعتبار هذه الثلاثة :

١. من عرف التوحيد , ولم يعمل به .

فجاء بمعرفة القلب ولم يأت بعمل الجوارح ، وذكر أن حكمه كافر ، وهذا القسم هو الذي ركز عليه المصنف وأطال فيه , وهو على نوعين :

أ. **من عرف التوحيد وتركه لغير عذر , أو لأعذار واهية** . وهؤلاء على أصناف :

١. ترك العمل به عناداً ، مثل إبليس , وفرعون , ونحوهم .

٢. ترك العمل به لخوف نقص مال , كما لو علم أنهم لو علموا أنه موحد لا يشترون منه ، ولا يبيعون له .

٣. ترك العمل به لخوف نقص جاه , كأن يكون له مكانة عندهم , فإذا عمل بالتوحيد نزلت مكانته الاجتماعية , ومثال ذلك ما كان من حال أبي طالب , حيث كان يعلم أن الحق هو ما جاء به النبي ﷺ ولكن تركه خوفاً من أن ينقص جاهه عند الناس , وقال في قصيدته المشهورة :

ودعوتني وعرفتُ أنك ناصحي ولقد صدقتَ وكنتَ ثَم أمينا

وعرضتَ ديناً قد عرفتُ بأنه من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة لرأيتني سمحاً بذاك مبيناً

٤. ترك العمل به مداراة , ومجاملة .

٥. ترك العمل به مشحة بالوطن ،كأن يكون يحب وطنه , فيترك العمل بالتوحيد مقابل البقاء في الوطن .

٦. ترك العمل به مشحة بالأهل , والعشيرة , فمحبة أهله , وعشيرته غلبته على العمل بالتوحيد , وإنكار الشرك .

فكل هذه الأعذار لا يعذر الإنسان بها , وهذه الأمثلة التي ذكرها المصنف وجدت في زمانه .

واستدل على بطلان هذه الأعذار بقصة الذين سخروا من الرسول ﷺ وأصحابه في غزوة تبوك ، فلم يعذرهم النبي ﷺ ويقاس عليه هذه الأعذار , لأنها أعظم من ذلك .

ب. من عرف التوحيد , وتركه لعذر :

وهذا العذر لا يكون إلا في المكره بشرط أن يكون قلبه مطمئناً بالإيمان ، لأنه لا إكراه على عمل القلب .

وأما غير هذا فإنه كفر ، واستدل لذلك بقوله تعالى ﴿ مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً ﴾ الآية .

فلم يستثن من الكفر إلا هذا النوع .

٢. من عمل بالتوحيد ظاهراً , ولم يعتقده بقلبه .

وهذا جاء بعمل اللسان , والجوارح ، وتخلف عمل القلب , وهذا منافق ، وهو شر من الكافر الخالص , والعياذ بالله .

ثم ختم المصنف كتابه برد العلم إلى الله .

نسأل الله أن يجزي الشيخ خير الجزاء , والله أعلم , وصل اللهم على نبينا محمد , وعلى آله , وصحبه , وسلم .

للمراسلة , والملاحظات بريد الابن تميم الجهني tamim7938@gmail.com